المُقَارَبَاتُ العِرفَانِيَّةُ

فِي بَلاغَةِ النَّصِّ القُرْآنِيِّ

د. بَلِيْغ حَمْدِي إِسْمَاعِيْل

الكتاب: المُقَارَبَاتُ العِرفَانِيَّةُ.. في بلاغة النص القرآني

الكاتب: د. بَلِيْغ حَمْدِي إِسْمَاعِيْل

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

إِسْمَاعِيْل، بَلِيْغ حَمْدِي

المُقَارَبَاتُ العِرفَانِيَّةُ في بلاغة النص القرآني / د. بَلِيْغ حَمْدِي إِسْمَاعِيْل

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٧٦ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ١ – ١٩٩ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ٨٥٧٨ / ٢٠٢١

المُقَارَبَاتُ العِرفَانِيَّةُ
في بلاغة النص القرآني

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧) (سورة آل عمران: ٢٦-٢٧)

هذا الكتاب

إِنَّ الحَمْدَ لله نحمده، ونَسْتعِينه، ونَسْتَغفِره، ونَعُوذُ بالله من شُرور أنفُسِنا وسَيِّئاتِ أعمالِنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قَامَت بها الأرض و السَّماوَات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنَّة والنَّار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار.

الحمد لله الذي شهدت له بالربوبية جميعُ مخلوقاته، وأقرَّت له بالإلهية جميعُ مصنوعاته، وشهدت بأنه الله الذي لا إله إلا هو بما أودعها من عجائب صنعته، وبدائع آياته، وسبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورِضى نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.الحمد لله الذي لا يبلغ مِدْحَتَه القائلون، ولا يحصي نعماءه العادُّن، ولا يُؤدِّي حَقَّه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن. ولا إله إلا الله وحده، لا شريك له في إلهيته، كما لا شريك له في ربوبيته، ولا شبيه له في ذاته ولا في أفعاله ولا في صفاته.

وأشْهَدُ أنَّ مُحَمَّداً عبده ورسوله، صَلَّى الله عليك يا سيّدي يَا رَسُول الله، وبارك عليك وعلى آلك وصَحْبك وكل من أنتَ أهل له يا حبيب الله، أشهد أنك عبده ونبيه ورسوله، وأشهد أنك أديت الأمانة، وبلغت الرسالة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة، فجزاك الله عنا وعن الإسلام

والمسلمين خير الجزاء.

يَقُول الله تعالي في كتابه العزيز: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ {٧} ﴾" (سورة آل عمران).

هذه فصولٌ تهتَم بِبَعضِ الجَوانِبِ اللُّغَويَّةِ والبَيَانيَّة في القرآن الكريم ؛ النَّص اللُّغوي المعجز ذي البيان والفصَاحة، وربما يبدو الاهتمام بدراسة بعض المظاهر اللغوية بالقرآن الكريم في هذه الأحايين غريباً في هذا العصر الذي نعيشه، أي في ظل مناخ عالمي مادي استطاع أن يقهر ويقمع الجوانب الروحية في حياتنا، بل وعمد إلى منع وقمع أية محاولة لمعالجة القرآن الكريم بالفهم والتأويل تحت دعاوى العلمانية والتيارات والفلسفات الإلحادية المعاصرة، وكذلك معالجة النصوص الدينية لكبار أئمتنا في تاريخنا الإسلامي الرشيق، وقد سعت المادية جاهدة في إجهاض حركة تناول تراثنا الديني لصالح أغراض استعمارية خفية.

وهذا الكتاب يقع في ثلاثة أبواب رئيسة، يتناول الأول منها ظاهرة القرائن اللفظية في القرآن الكريم، وهي تتعلق بالنص القرآني بل تعد من أبرز خصائصه اللغوية والتي تعين على فهم وتفسير القرآن الكريم، وفيه نبحث عن تفرد الوظائف اللغوية والشهود الحضاري لألفاظ اللغة العربية وتمتعها بالأصالة والمعاصرة، والقرائن اللفظية في القرآن من حيث المفهوم والخصائص والأنواع،ودور السياق في فهم النص القرآني، وعرض أمثلة من

أوجه الإعجاز البياني والبلاغي في القرآن الكريم مع تحليلها وتفسيرها.

بينما يتناول الباب الثاني من الكتاب دراسة بعض موضوعات القرآن الكريم، ونعني بالموضوعات بعض الألفاظ الواردة في القرآن الكريم والتي تتضمن أكثر من معنى غير معناها الأصلي مثل الإحسان، والأواب، والمناقشة والحوار، والعدل، والابتلاء والحكمة منه، وشهر رمضان وفضائله.

بينما يقتصر الباب الثالث على عرض بعض القضايا الإسلامية المعاصرة والتي تبرز وسطية الإسلام وصلاحيته لكل زمان ومكان، ومن هذه القضايا المبادئ الإنسانية في الإسلام، ومكانة المرأة وصورتها في الدين الإسلامي، وعرض موجز لمحاولات تشويه الإسلام في الإعلام الغربي مع كيفية مواجهة هذه الحملة الشرسة على الإسلام والمسلمين، بالإضافة إلى استكمال ما كنا قد بدأناه في كتابنا " فقه الخطاب الديني المعاصر" حول تجديد الخطاب الديني ومعالجة أوجه قصوره، ويتناول هذا الباب أيضاً شبكات التواصل الاجتماعي وكيف نحصن أبناءنا من خطر النوافذ الإليكترونية المفتوحة.

والله نسأل أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يوفقنا الله لما هو فيه خير للإسلام والمسلمين، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل..

الدكتور بليغ حمدي إسماعيل

المنيا الجديدة. مارس ٢٠٢١

البَابُ الأوَّلُ

القَرائِنُ اللَّفْظِيَّةُ في القُرْآنِ الكَرِيمِ

- اللّغَةُ بَين اخْتِلافِ المُوَاضَعَةِ وتَفَرُّد الوَظائف اللّغَوِيَّة
- القَرَائِنُ اللَّفْظِيَّةُ.
- نَظَراتٌ في التَّعْبِيرِ القُرْآنِي.

الفصل الأول

اللُّغةُ بَين اختِلافِ المُواضَعَةِ وتَفرُّد الوظَائِف اللُّغَويَّة

مُواضَعَةُ اللُّغَةِ:

اللُّغة كَكُرَةٍ، أصلها لَغو، من باب دَعا وسَعى ورضى، ووزنها فُعَة، حُذِفَت لامها، وعوض عنها هاء التأنيث، وتجمع على لغى، ولغات، ولغون، وهي الصَّوت مطلقاً، واللهج (الوُلوع) بالشَّئ والخَطأ والسَّقط (ما لا يعتد به) والنطق والهذيان، والباطل، ولم ترد لفظة لُغَة في القرآن الكريم، وإنما ورد مكانها اللسان، بينما وردت لفظة (اللغو) في غير معنى اللُّغة. أما بالنسبة إلى مفهوم اللُّغة اصطلاحاً فإن إيجاد تعريف ملائم للغة أمر في غاية من الصعوبة، وقد أمضى علماء اللُّغة والفلاسفة القُرون العَديدة في محاولة إيجاد تَعريفٍ ملائمٍ للمُصطلح، والتَّعريف ما هو في حقيقة الأمر إلا نظرية مركزة، والنظرية ببساطة ما هي إلا تعريف موسع.

وقد اهتم القُدَمَاء والمحدثون من اللُغَويين بتقديم تعريف للُّغَةِ يوضح معناها، ويبين المَقْصُود بها، وقد نال التَّعريف الذي قال به ابن جِنّي شُهرة واسِعَة لدى المحدثين من اللُّغويين العَرَبِ، واهتم الكثيرون بِشَرحِه وبيان مَقْصَدِه، ويرى العالم اللُّغوي ابن جني اللغة على أنها " أصوات يعبر بها كل قَوم عن أغْراضهم". وهذا التَّعريف دقيقٌ في جَوهَره مع عَناصر تَعرِيف اللُّغة عند البَاحثين المعاصرين، فهو يؤكد على جانب الطبيعة الصوتية

للرموز اللغوية، ويبين أيضاً أن وظيفتها الاجْتِماعيَّة هي التعبير ونَقل الأفْكار في إطار البِيئة اللغويَّة.

وقد تعددت تعريفات اللغة بتعدد المذاهب والاتجاهات المختلفة التي تنظر إلى اللغة سواء باعتبارها أداة يتبادل أفراد المجتمع الواحد بواسطتها الأفكار، والمعارف، أو باعتبارها وسيط يسهل عملية الاتصال بين أفراد المجتمع، وفي ضوء هذين الاتجاهين تعددت التعريفات واختلفت فيما بينها. ويرى ميللر Miller اللغة على أنها "استعمال رموز صوتيّة مقطعيّة يعبر بمقتضاها عن الفكر"، ويعرفها جون كارول John Carroll بأنها النِّظام المتشَكِّل من الأصْوات اللَّفظية الاتفاقية وتتابعات هذه الأصوات التي تستخدم أو يمكن أن تستخدم في الاتصال المتبادل بين جماعة من النَّاس، والتي يمكن أن تصفَ بشكلٍ عام الأشياء والأحداث والعمليَّات في البيئة الإنسانية. بينما يرى موريس MORRISاللغة بأنها "مجموعة من علامات ذات دلالة جمعية مشتركة ممكنة النطق بين أفراد المجتمع المتكلم بها كافة"، وهي ذات ثبات نسبي في كل موقف تظهر فيه، ويكون لها نظام محدد تتآلف بموجبه حسب أصول معينة وذلك لتركيب علامات أكثر تعقيداً.

وتعرف دائرة المَعارفِ الأمريكيَّة اللُّغة بأنها " نظامٌ من العلاماتِ الصوتيّة الاصطلاحية"، ويعرفها سابير بأنها " وسيلة تفاهم خاصة بالإنسان تمكنه من تبادل الأفكار والعواطف والرغبات بواسطة رموز صوتية اصطلاحية على وجه التغليب والتعميم يصدرها أعضاء النطق إرادياً".وتعرف الموسوعة الفرنسية اللغة بأنها " علامات مركبة تولد في الشعور إحساسات متباينة، إما مستثارة أو مباشرة، أو مخمنة عن طريق

الارتباط". ويعرف ماكس موللر اللغة بأنها " تستعمل رموزاً صوتية مقطعية، يعبر بمقتضاها عن الفكر.

وعرّف علماء النفس اللغة، فرأوا أنها مجموعة إشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور، أي عن حالات الإنسان الفكرية و العاطفية و الإرادية، أو أنها الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحليل أية صورةٍ أو فكرةٍ ذهنيةٍ إلى أجزائها أو خصائصها، و التي بها يمكن تركيب هذه الصورة مرّة أخرى بأذهاننا و أذهان غيرنا، و ذلك بتأليف كلماتٍ و وضعها في ترتيبٍ خاصٍ.

وهناك تعريفات عديدة أخرى، تتفق حيناً و تختلف حيناً آخر. و لعلّ مصدر التباين في هذه التعريفات ناشئٌ عن منطلقات أصحابها الفكرية. فمن تعريف وصفيٍ خارجيٍ، إلى تعريف نفسيٍ داخليٍ، إلى آخر يمثل نظرة فلسفيةً معينةً لواقع الإنسان و وجوده و نشأته. علماً أن الناظر إلى واقع اللغة الإنسانية – وصفاً و تقريراً – يجد أنها أصوات و ألفاظ و تركيب منسقة في نظامٍ خاصٍ بها، لها دلالاتٌ و مضامين معينة، يعبّر بها كل قومٍ عن حاجاتهم الجسدية و حالاتهم النفسية و نشاطاتهم الفكرية.

ولاشك أنه في ضوء المواضعات السابقة للغة أنها مجموعة إشارات تصلح للتعبير عن حالات الشعور المختلفة، أي عن حالات الإنسان الفكرية والعاطفية والإرادية،وهي الوسيلة التي يمكن بواسطتها تحليل أية صورة أو فكرة ذهنية إلى أجزائها أو خصائصه المميزة، والتي يمكن بها تركيب هذه الصورة مرة أخرى في أذهاننا، وأذهان غيرنا من أفراد المجتمع الواحد، وذلك بوضعها في ترتيب وتنظيم خاص.

كما أن اللغة قدرة ذهنية تتكون من مجموع من المعرف اللغوية، بما فيها المعاني و المفردات والأصوات والقواعد التي تنظمها جميعاً. كما أنها نظام من الرموز الصوتية يتألف من أصوات تنجم عن جهاز النطق البشري، وإنساني فهو نتاج للجهد الجماعي البشري، ونظامي لأنه يخضع لقواعد تقرر تركيبه. وعندما نحاول التوفيق بين المواضعات المختلفة للغة نستطيع أن نخرج بمجموعة من السمات الخاصة التي تصف اللغة وهي:

١. اللُّغة لها طبيعة منظمة وتوليدية.

٢. اللغة مجموعة من الرموز العشوائية.

٣. هذه الرموز صوتية ولكنها قد تكون مرئيَّة.

٤. الرُموز تستعمل للاتِّصال بين الجَماعات.

٥. اللغة توجد في مجتمع وثقافة.

٦. الأفراد يكتسبون اللغة بنفس الطريقة تقريباً، أي أن اللغة والتعليم اللغوي لهما جميعاً صفات عامة متماثلة.

٧. اللُغة أداة للفكر، وتعبير عن العاطفة.

٨. اللُّغة جزء من كيان الإنسان الروحي.

٩. اللُّغة عملية فيزيائية اجتماعية على غاية من التعقيد.

ولقد تناول علماء اللغة، وعلماء النفس قضية اكتساب اللُّغة، في محاولة ـ قد تَكون جادة ـ لتفسير كيفية اكتساب الفرد للغة. وقد اختلفت الآراء بشأن تلك القضية أو الظاهرة، بحسب فلسفتهم وإطارهم المرجعي.

ولم تعد اهتمامات علم اللغة الحديث مقتصرة على الجوانب النظرية والتحليلية في دراسة اللغة فقط، بل أضيفت إليها اهتمامات، ومَهام جديدة – بخاصة بعد ظهور علم اللُّغة التطبيقي– تهدف إلى خدمة المجتمع، ومن هذه المهام: الاهتمام بدراسة عيوب النطق ومشكلات التخاطب والكلام، وعلاجها إن أمكن، ومنها أيضاً الاهتمام بدراسة نمو الطفل اللغوي، ومنها أيضاً الاهتمام بدراسة ظاهرة اكتساب اللغة، بالإضافة إلى دراسة مهارات الاتصال اللُّغوي، وغير ذلك من الموضوعات التي لها علاقة وثيقة باللُّغة والمجتَمع.

وظائف اللغة:

للُّغة بصفة عامة وظائف مهمة رصدها العلماء واللغويون والباحثون دون التفرقة بين اللغة المكتوبة، أو المسْمُوعة، أو المنطوقة، حيث إن هذه الاعتبارات الثلاثة تؤدي وظيفة واحدة هي التفاهم بين أفراد المجتمع الواحد. ولا ريب في أن وجود عدة لغات وقت التنزيل بدا لنا فضل العربية، وشرفها على سائر اللغات، وتكريم الله بالاختيار كلغة لكتابه الأخير ﴿ إِنَّا أنزلناه قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُم تَعْقلون﴾.(يوسف:٢).

وإذا كانت الأدبيات اللغوية أسهبت في الحديث عن أهمية ووظيفة اللغة وتعدد مناحي استخداماتها، فيمكن أن نحدد أهمية ووظيفة اللغة في مظهرين اثنين؛ الفردي والاجتماعي،ولعل هذا التقسيم يتفق مع ما يسمى بالكفاءة اللغوية.

فأما على المستوى الفردي،فاللغة تسهم في إخراج الفكرة من ذهن

صاحبها إلى عالم الإدراك الخارجي، فتترجمها إلى صورة بارزة ذات كيان ومعالم. فالإنسان تجول في خاطره مجموعة من الأفكار والمعاني تظل كامنة إلى أن يقدمها في صورة مكتوبة، أو منطوقة، ويستطيع أن يصور ويجسد بذلك مشاعره واتجاهاته المختلفة. واللغة بذلك تعد أداة للفكر ووسيلة للتعبير عما يدور في خاطر الإنسان من أفكار، وما في وجدانه من مشاعر وأحاسيس.

ويرى أصحاب النَّظرة الفِكريَّة للُّغة أن اللغة نظام لاكتسابِ العادات، ويكتسب الفرد من خلالها الخبرة عن طريق التجربة،وأن آليّات الذّهن اللُّغوية تعتبر مدخلاً عاماً لفهم طبيعة عمل الآليات الأخرى كالإدراك البصري والحدث. ويرى (فندريس) أن اللغة في بعض الأحيان تستطيع أن تعدل من العقلية وتنظمها، فعادة وضع العقل في مكان بعينه دائماً يمكن أن تؤدي إلى صورة خاصة في التفكير، وأن يكون لها أثر في طرق الاستدلال. ويؤكد فندريس أن اللغة إذا كانت مرنة وخفيفة ومقتصرة على الحد الأدنى من القواعد النحوية سمحت للفكرة بالظهور في وضوح تام وأتاحت لها حرية الحركة.

وتبرز أهمية اللُّغة في علاقتها بالفكر والتفكير، حيث إن هناك علاقة وطيدة ومباشرة بين اللغة والفكر تتضح لنا ما أن نربط بين تجريدية الفكر وحقيقة أن اللغة نظام يعمل على مستوى المفاهيم والمجردات من مقولات وعلاقات وسمات، كما أن اللغة وسيلة لإدراك ظواهر ثنائية مثل الزمان والمكان ؛حيث إنها تعبر عن الماضي والحاضر والمستقبل، والتوقف والاستئناف والاستمرار. وفي إطار العلاقة التبادلية بين اللغة والفكر تبدو

العلاقة التبادلية في أوضح صورها، فكما يسمو الفكر بلغته، يمكن للغة أن تسمو بفكر صاحبها، ويشهد تاريخ الفكر الإنساني أن اللغة كانت أشد الأسلحة الأيديولوجية ضراوة،وهي الوسيلة والأداة القوية في السيطرة على الفكر.

وعن طريق اللغة يقوم الإنسان بالعمليات التفكيرية من تفسير وتحليل وموازنة وإدراك للعلاقات، واستخراج للنتائج وتجريد وتعميم، ثم يصب ناتج كل هذه العمليات عندما تمده اللغة بالرموز التي تحدد له المعاني وتحمل له الأفكار. لذا أصبح من الواضح لنا بشكل مطرد أن الحديث عن التفكير مع تجاهل اللغة يفتقد كثيراً إلى التوازن نظراً لأن الألفاظ ليست فقط ذات أهمية قصوى في تعلم المفاهيم ولكنها أيضاً الوسط أو القناة الموصلة لجميع أنواع التفكير.

وقد قدم عالم النفس فيجوتسكيVygotsky أفضل تحليل مستنير للتفاعل بين اللغة والتفكير في كتابه (التفكير واللغة) عام ١٩٦٢م، حيث يرى أن للغة وظيفتين لهما نفس المستوى من الأهمية،أولهما الاتصال الخارجي، والثانية التحكم الداخلي بأفكاره الداخلية. ولقد بسط العلماء العلاقة بين اللغة والتفكير مثل سابير و هكتر هامرلي و بارلي ماكلافن، حيث إن المعاني غير محددة وغير ثابتة وفي حالة تشكل دائماً تكون مبهمة مختلطة بغيرها حتى إذا جاء اللفظ عمد إلى تحليل المعاني وتصنيفها، ومن ثم تحديدها وتثبيتها. ونقرب لهذا مثلاً من اللغة العربية، فالإيمان معنى كامن في النفس نحس به ونستشعره دون أن نقوى على تحديده، فإذا عبرنا عنه بالألفاظ ميزنا الإيمان عن الإسلام عن التقوى عن الإحسان، وقلنا أن

الإيمان ما اعتقده القلب وصدقته الجوارح.

أما على المستوى الجمعي فإن اللغة هي المستودع التعليمي للمعارف والمعايير الثقافية والتاريخ الاجتماعي المتوارث عن طريق العملية التعليمية، وتعمل اللغة " كالغراء الاجتماعي الذي يتم بموجبه الشعور بالماضي والحاضر والمستقبل. واللغة بهذا المنظور الاجتماعي يلاشك أبرز ملامح ثقافتنا العربية، وهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطاً بالهوية، وهي اللغة التي مازالت سجلاً أميناً لحضارة أمتها في ازدهارها وانتكاسها، لذا فاللغة اجتماعياً سلاح قوي في مواجهة تفتيت التكتل الإسلامي في ظل العولمة. وتزداد يوماً بعد يوم مساهمة اللغة في تحديد الأداء الكلي للمجتمع الحديث، فهي تساعد في تدعيم العلاقات التي تربط المجتمع، وأهم العوامل التي تحدد ثقله الاستراتيجي.

وإذا نظرنا للغة باعتبار مهاراتها الأربع، نرى الدور المهم لها في حياة المجتمع، حيث إنها سلاح الفرد في مواجهة كثير من المواقف التي تتطلب الكلام أو الاستماع أو القراءة أو الكتابة، وهذه المهارات أدوات مهمة في إحداث عملية التفاهم في جميع نواحيها، ولاشك أن من أهم الوظائف الاجتماعية للغة ما تبرزه الخطب السياسية والمقالات وأساليب الدعاية.

واللغة ليست أداة صناعية خارجة عن علاقاتها بالمجتمع الذي تعيش فيه، بل هي صورة له، نابضة بالحياة، فإذا كان المجتمع متخلفاً ظهرت آثار التخلف في لغته، متخلفة معه، وإذا كان مجتمعاً راقياً بدا الرقي في لغته، كذلك فالشعوب البدائية يتكلمون لغة مادية لا تعرف الفكر أو المعاني الكلية، أما الشعوب الراقية ذوات الثقافة والفكر فتحمل لغاتها سمات

حياتها العامة والخاصة التي تستطيع أن تعبر في صور متعددة، وعبارات لا تحتاج إلى الإشارات، واللغة العربية تجنح إلى العقلية والخيال والتعبير عن الشئ منظوراً إليه من جهات متعددة.

ولم تعد اللغة مجرد أداة اتصال نعبر بواسطتها عن المفاهيم والأفكار والقيم ونحفظ بها التراث الثقافي والعلمي فحسب، وإنما أخذت تلعب دوراً رئيساً في عملية التنمية الروحية والاجتماعية والعلمية والتكنولوجية، وأصبحت وسيلة أساسية لتوحيد الأمة سياسياً، لما في اللغة من قوة تتجاوز أهميتها من التعبير إلى التغيير.

الشهود الحضاري لألفاظ اللغة العربية:

تدل اللغة العربية على الحياة العقلية من ناحية إن لغة كل أمة في كل عصرمظهر من مظاهر عقلها وتفكيرها، ولم تخلق اللغة دفعة واحدة، ولم يأخذها الخلف من السلف الصالح كاملة، إنما تخلق أو يخلق الناس في أول أمرهم ألفاظاً على قدر حاجاتهم، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظاً جديدة، وإذا اندثرت أشياء قد تندثر ألفاظها معها، وهكذا نرى اللغة في حياة وموت مستمرين. وهذا ما أشار إليه " أوليري " في كتابه " العربية قبل مُحَمَّد " Arabia before Mohammed من حيث إن الاشتقاقات والتعبيرات اللغوية فهي أيضاً تنمو وترقى تبعاً لرقي الأمة، ويقول أوليري: "ولما كان هذا أمكننا إذا أحضرنا معجم اللغة الذي تستعمله الأمة في عصر من العصور أن نعرف الأشياء المادية التي كانت تعرفها والتي لا تعرفها ".

ولقد درج النحاة واللغويون القدماء على استعمال كلمة " لفظ " استعمالاً غير محدد، وهذا ما أشار إليه المفكر اللغوي الدكتور تمام حسان، حيث إن كلمة " لفظ " العربية تشير تارة إلى الكلمة، وتارة أخرى إلى الكلام، رغم الفارق البيّن بين كليهما في الإفراد والتركيب، ولكن هذا يعكس ما للفظة العربية والواحدة على التعبير عن معانٍ وتعابير طويلة بكلمة واحدة قصيرة.وما يؤكد كلامنا هذا قول ابن مالك: " كلامنا لفظ مفيد ". وقول الجزولي: " الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع "، إذا نحا كلاهما باللفظ منحى التركيب في مقابل ما شاع من جعل اللفظ مرادفاً للكلمة على ألسنة الدارسين. وهذا يجعلنا نقر بامتلاك اللفظة الواحدة صورة ذهنية ثابتة نسبياً إذا عالجناها من المنظور المعجمي، وبصور ذهنية متعددة إذا خرجت هذه اللفظة من ضيق المعنى المعجمي إلى آفاق أرحب وأوسع.

وحينما نقترب لرصد المشهد الحضاري لألفاظ اللغة العربية نستبين أن هناك ألفاظاً تغيرت معانيها في الإسلام، حيث كان المعنى لها في الجاهلية عاماً وخصص في الإسلام، مثل الصلاة، والزكاة، والحج، والبيع، والمزارعة، بل إن اللفظ الواحد قد تغير مدلوله في عقل السامع بانتقاله من طور البداوة إلى المشهد الحضاري، مثل لذلك لفظة الكرسي التي كانت تعني لدى البدوي المقعد الخشبي أو الحجري فقط الذي يجلس عليه المرء، ولكن بعد نزول القرآن استطاعت اللغة العربية أن تخلق لها مشهداً حضارياً ليعادل هذه المعجزة اللغوية السماوية، فانتقل مدلول الكرسي من معناه الضيق ليشير مرة إلى العرش، ومرة إلى المنصب، ومرة إلى المنزلة وهكذا.

والإمام جلال الدين السيوطي في كتابه المزهر يقول: " إن لفظ الجاهلية اسم حدث في الإسلام للزمن الذي كان قبل البعثة، والمنافق اسم إسلامي لم يعرف في الجاهلية ".

وأوضح علماء اللغة المتقدمون أن أهل التحقيق أشاروا إلى أن الألفاظ العربية تابعة للمعاني، كون المعاني أصلاً للألفاظ، حيث إن المعاني منها ما يكون معنى واحداً، ثم توضع له ألفاظ كثيرة تدل عليه وتشعر به، ولو كانت المعاني تابعة للألفاظ لكان يلزم إذا كانت الألفاظ مختلفة أن تكون المعاني مختلفة أيضاً. ويؤكد قولنا هذا ما أشار إليه البلاغي العربي يحيى العلوي في كتابه الطراز، حيث يقول إن المعاني لو كانت تابعة للألفاظ للزم في في كل معنى أن يكون له لفظ يدل عليه، فإن المعاني لا نهاية لها، والألفاظ متناهية، وما يكون بغير نهاية لا يكون تابعاً لما له نهاية، ويقول البلاغي يحيى العلوي ما نصه: " وإنما كانت الألفاظ متناهية، لأنها داخلة في الوجود، وكل ما دخله الوجود من المكونات فله نهاية لاستحالة وجود ما لانهاية له، وموضعه الكتب العقلية ".

وثمة عوامل جعلت اللغة وألفاظها تخرج من كونها مجرد وسيلة اتصال ووسيط للتواصل الإنساني إلى اعتبارها مشهد من مشاهد الحضارة الإنسانية، منها عوامل تطور الوظيفة اللغوية، وتنوع الخطاب اللغوي من خطاب لا يخرج عن المراسلات الإخوانية أو الرسمية إلى خطاب إبداعي مثل الشعر والقصة والرواية، وخطاب سياسي، وعوامل وافدة مثل نظريات علوم اللغة التي أطلقت على اللفظ اللغوي مفهوم الدال وعلى ما يتضمنه اللفظ من معنى ومضمون مفهوم المدلول.

واللغة العربية التي نحرص أن يلتزم بها متحدثو الضاد نطقاً وكتابةً بصورة وظيفية أو إبداعية، هي لغة كتب لها الشهود الحضاري منذ أن نزل القرآن الكريم بها، فأعطى لها حق الحياة، ومنحها تجدداً مستداماً لا ينقطع. ولا ينكر جاحد أن القرآن الكريم دستور المسلمين في شتى بقاع الأرض قد حَقَنَ اللفظة العربية بعقار منحه النشاط الزائد، وخير دليل على نشاط المفردة العربية أن حركة التقدم العلمي المستمرة كل يوم قد صحبها تجديد البحث في النشاط اللغوي ومن خلال تقعيد مفردات لغوية جديدة تناسب هذا التقدم العلمي.

بل إن اللغة العربية ذاتها أصبحت في السنوات الأخيرة من إحدى وسائل الشحذ الحضاري، عن طريق دور الترجمة اللغوية الصائبة لكل المؤلفات العلمية، وهذا ما أشرنا إليه ونحن نتحدث عن تغير وظيفة اللغة من كونها وسيلة اتصال ووسيط تواصل إلى وسيلة ضرورية لتنمية الفكر البشري عن طريق الترجمة.

ولاشك أن اللغة استطاعت أن تلعب دوراً سياسياً بالغ الخطورة والأهمية على السواء في المشهد السياسي في الدول التي شهدت ربيع الثورات في العام الماضي، فاللغة الإشارية التي كان الشباب يصر على إقحامها في تواصلهم الاجتماعي اختفت واندثرت بفعل التماس الثائرين للغة ومفرداتها النشطة للتعبير عن مطالبهم ومطامحهم، وهذا ملمح آخر جديد على الشهود الحضاري المعاصر لألفاظ اللغة العربية التي لم تكن غائبة عن الحراك السياسي.

ورغم أن اللغة العربية وبلاغتها المميزة لطبيعتها تتعرض لمحاولات

تشويه مقصودة ومستمرة من قبل بعض الأشخاص الذي يطلقون على أنفسهم لفظ مبدعين وكذلك بعض المنظمات الأجنبية التي تعمل جاهدة ليل نهار على تقويض دعائم اللغة عن طريق المناداة بدعاوى مشبوهة لغوياً مثل التخلي التدريجي عن الخاصية الإعرابية للغة، وعن طريق تهميش دور القواعد العروضية التي تمثل طقس الشعر وشرائطه الضابطة، وأخيراً ضرورة الدمج بين اللغة الفصيحة واللهجات العامية تحت ظن أن الأخيرة أقرب في التواصل بين المتحدثين باللغة ذاتها.

وهذا لغط شديد وخطأ بيّن، لأن الألفاظ العربية الفصيحة تمتلك قدرة هائلة بفضل اللفظ القرآني على الثراء والامتلاء اللغوي بمعنى القدرة على التعبير التام عن جميع المشاعر والمظان والحقائق، بالإضافة إلى تمتع اللفظة العربية بالحضور عن طريق تنوع المعنى ودقة التوصيف.وتتميز اللغة العربية بمزية فريدة لا تشترك معها فيها لغات أخرى وهي مزية الانفراد اللغوي، أي أن هناك كلمات تعد نشيطة أي قابليتها للاشتقاق والنحت اللغوي من مفردة واحدة مع الحفاظ على قدر مقبول من التمايز، مثل مشتقات كلمة عَلِمَ، والتي يمكن اشتقاق ونحت عدة كلمات منها مثل: عِلم (بكسر العين وتسكين اللام) ومعلم ومعْلم (بفتح العين وتسكين العين) وعليم، وعلاَّم، وإعلام، وتعليم، واستعلام.وهذه الزوائد والسوابق واللواحق والدواخل التي تضاف إلى الكلمة تعد مورفيمات (أصغر وحدة لغوية ذات معنى) لأن هذه الزوائد مورفيمات لها معانيها ولأنها وحدات يكثر تواجدها في كلمات اللغة.

وعملية النحت اللغوي تلك تمنح اللفظ العربي القدرة على الشهود

الحضاري، والقدرة على التكيف المقبول والمناسب لكافة المتغيرات المعاصرة، والتعبير عن حالات اجتماعية متباينة. ثمة ظاهرة أخرى تتمتع بها الألفاظ العربية لتحقق الشهود الحضاري للغة ذاتها، وهي ظاهرة الحوار بين الكلمات، وهو ما اتفق على تسميته بين المنظرين اللغويين بالسياق اللغوي، حيث إن المفردة اللغوية لا تتمتع بنوع من التمايز المستقل أو الاستعلاء اللغوي عن بقية الكلمات الواردة بنص لغوي معين، ومفاد هذا أن اللفظة الواحدة تمثل الشكل الظاهري المجرد لنص معين، وبتراص الألفاظ بصورة متناسبة ومترابطة تحت موضوع محدد تمنح للنص نفسه شكلاً باطنياً آخر بغير خلل.

ملمح آخر يؤكد على الشهود الحضاري لألفاظ اللغة العربية، وهو تقسيم الكلمات العربية إلى كلمات نشيطة، وكلمات خاملة، ويقصد بالكلمات النشيطة تلك الكلمات التي تعلم ليستخدمها المرء في كلامه وكتابته، أما الكلمات الخاملة فيقصد بها تلك الكلمات التي يتوقع من الإنسان أن يفهمها إذا سمعها أو قرأها، ولكن لا يتوقع منه أن يستخدمها إذا تكلم أو كتب. ورغم هذا التقسيم إلا أنه ليس ثابتاً، فالحدود بين هذين النوعين حدود مرنة متحركة، فالكلمات الخاملة في نشاط لغوي (خطاب لغوي) معين قد تكون نشطة في خطاب لغوي آخر، أي أن الكلمات والألفاظ العربية في انتقال مستدام من دائرة الخمول إلى دائرة النشاط، ذلك لأن لكل حقل وميدان لغوي من ميادين المعرفة مفرداته ومواضعاته اللغوية المحددة.

الفصل الثاني

القَرَائِنُ اللَّفْظِيَّةُ.

في الأسْلُوْبِ القُرْآنِي:

يُعرِّف منَّاع القطَّان الإعْجازَ بقوله: " الإعجاز: إثبات العجز، والعَجْزُ في التَّعارف: اسمٌ للقُصُورِ عن فِعل الشَّئ، وهو ضِدُّ القُدْرة، وإذا ثَبُتَ الإعجاز ظهرت قدرة المعجز.والُمَرادُ بالإعْجَازِ هُنا إِظْهَار صِدْقِ النَّبي (ﷺ) في دَعْوى الرِّسَالةِ بإظهار عَجْز العَربِ عن معارضته في مُعجِزته الخَالِدة وهي القُرآن الكريم، وعَجز الأجيال بعدهم، والمعجزةُ هي أمرٌ خارِقٌ للعَادَةِ مَقْرونٌ بالتَّحَدِّي سالمٌ عن الُمعارضَةِ.

و المُسْتقرئُ بتدبر لآياتِ الذِّكْرِ الحَكِيْم يُدرك على الفورِ ما لها من أسلوب فريد ونظام منحها خصوصية عن الأساليب البيانية واللغوية الأخرى وحفظها من الدخيل والاختلاف واللحن،وللقرآن الكريم روعة تهتز لها النفوس والقلوب والألباب، وله وقْعٌ عجيب تخشع له القلوب، وهذا ليس بغريب على كتاب أنزله ربُّ السموات والأرض، ومما يحفظه القرآن الكريم والتاريخ الإسلامي لنا من أثر هذا الوقع هو ما استشعر به مشركو مكة وهم أهل البلاغة والبيان والإفصاح حينما استمعوا إلى آيات القرآن الكريم، وحينئذ عرفوا عظمته وإعجازه اللغوي والبياني، لكن الكبر والغرور هو الذي منعهم من الإيمان به وبما جاء فيه.

وقد استطاع الوليد بن المغيرة يوم سماعه القرآن، أن يصف بدقة بالغة أثره في النفوس، حيث قال: (والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغدق، وإن أعلاه لمثمر، وما هو بكلام بشر). وكل منصف للحقيقة يُقرُّ أن الأسلوب الذي جاء عليه القرآن الكريم، والنسق الذي صيغت عليه آياته، أمر في غاية الروعة والبيان، ولا عجب في ذلك، فهو كلام رب العالمين، وهو ﴿أحسن الحديث﴾ (الزمر:٢٣)،ويقول تعالى: ﴿ومن أصدق من الله حديثا﴾ (النساء:٨٧).وكما يذكر الأستاذ سيد قطب في كتابه " التصوير الفني في القرآن الكريم" أن القرآن الكريم سحر العرب منذ اللحظة الأولى، سواء من شرح الله صدره للإسلام، ومن جعل على بصره منهم غشاوة، وقصة إيمان عمر بن الخطاب (رضي اله عنه) وقصة تولي الوليد بن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة متعددة للإيمان والتولي وكلتاهما تكشفان عن هذا السحر القرآني الذي أخذ العرب منذ تلك اللحظة الأولى.

ومن المتكلمين من أشار إلى الصِّرفة كمبررٍ للإعجاز القرآني، والصِّرفة في نظر أهل الكلام والمتكلمين هي أن الله صَرف العرب عن معارضة القرآم مع قدرتهم عليها، فكان هذا الصرف خرقاً للعادة. والمرتضي يرى الصِّرفة أن الله سَلب العربَ العلومَ التي يحتاجون إليها في المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن. وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: " ومما يبطل القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة، لم يكن الكلام معجزاً وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره في نفسه".

والقول بالصرفة قول فاسد يرد عليه القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾ (سورة الإسراء:٨٨ . ٨٩).

ولقد تحدى الله (عز وجل) العرب بالقرآن الكريم، وهم كانوا في قمة البلاغة والفصاحة والبيان، ورغم ذلك التفوق اللغوي نزل القرآن الكريم يتحداهم فيما برعوا فيه فسجلوا عجزهم أمامه مما يدل على أن العجز بغيرهم ألصق، ولقد تحداهم الله (عز وجل) أن يأتوا بمثله، يقول تعالى:﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لا يُؤْمِنُونَ (٣٣) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (سورة الطور:٣٣.٣٤)، ويقول تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود:١٣).

ويشير الدكتور زين شحاتة في كتابه " في نور القرآن الكريم " إلى أن أحد أسباب إعجاز القرآن الكريم هو نزوله " سابق البنيان عليُّ الأركان، غزير المعاني، بليغ النغم، معجز النظم،، يأسر اللب، ويسحر العقل، ويدخل شغاف القلب فيه حلاوة وروعة ومهابة".

والحديث عن فضل القرآن الكريم على لغة العرب لا يحتاج إلى دليل، فقد علم ولا يزال يعلم أهل الأرض كافة أن اللغة العربية تبوأت مكانتها تلك بسبب كونها وعاءً لكلام الله تعالى، ولأجل ذلك قامت العلوم المختلفة لخدمتها ثم صارت اللغة العربية لغة العلم والحضارة، بجانب كونها لغة العبادة والتعبد، ولعل من أسباب هذا السحر البياني الذي تمتعت به آيات القرآن الكريم التناسق والتكامل في اللفظ والمعنى.

وفي هذا الصدد يشير الدكتور السيد تقي الدين إلى أن القرآن الكريم يقدم إلينا لوحات فنية أدبية وقد حدد لنا مثلاً أعلى في الحياة والفن، ورسم للفكر خريطة تستمد خيوطها من تلك الينابيع والمناهل الفياضة. وهذا ما أكده أيضاً الدكتور مُحَمَّد دراز من أن القرآن الكريم كتاب أدبي وعقيدي في نفس الوقت ونفس الدرجة.

ويشير الباحث السيد سبيط إلى وجه من وجوه الإعجاز القرآني حيث إن في القرآن نظاماً محكماً شديد الصرامة، منتشراً في جميع أجزائه، بحيث ان اللفظ – مفردة كان أو حرفاً– والترتيب والتسلسل المعيَّن للألفاظ في كل تركيب هو جزء من هذا النظام، والخطأ في تصوّر شيء منه في أي موضع يؤدي إلى الخطأ في تصور فروع كثيرة متصلة بذلك الموضع. وخلص مصطفى صادق الرافعي إلى نتيجة السحر القرآني البياني ومدى تأثيره في الودان والألباب من حيث نظمه وأسلوبه، وطرائق نظمه، ووجوه تراكيبه، ونسق حروفه في كلماته في جمله، ونسق هذه الجمل،و هو وجه الكمال اللغوي. والحرف الواحد من حروف القرآن في موضعه من الإعجاز الذي لا يغني عنه غيره في تماسك الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية.

ومن وجوه الإجاز القرآني اتساقه وائتلاف حركاته وسكناته، ومدّاته وغنّاته... وهذا هو (ما) استرعى الأسماع واستهوى الأفئدة بصورة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر سواء أكان شعراً أم نثراً. فكان ذلك الاتساق الفريد كالسور المنيع لحفظ القرآن الكريم بحيث لو داخله شيء من كلام الناس لاعتلّ مذاقه، واختلَّ نظامه. فالقرآن الكريم كله وحدة مترابطة ؛ من

حيث قوة الموسيقى في حروفه وتآخيها في كلماته، وتلاقي الكلمات في عباراته ونظمه المحكم في رنينه... وكأنَّ المعاني مؤامنة للألفاظ، وكأنَّ الألفاظ قطِعتْ لها وسويت حسبها.

ومن معجزات القرآن أنه يخاطب العقل والقلب معاً، فتجد له وقعاً على كليهما، وجعله الله شفاء للقلوب ورحمة ونور، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧)، وقال:تبارك وتعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ (الإسراء:٨٢)، كما أن معظم القرآن إنما يخاطب العقل ويحثه على التفكر في خلق الله كالسماوات والأرض وإمعان النظر في الكون وفي الأنفس والآفاق وجعل ذلك وسيلة للوصول إلى الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٥).

وقد جعله الله تعالى مصدراً لتثبيت النفس وعونها على الصبر ومصدر هداية وتبشير للمؤمنين كما ثبت به الله تعالى فؤاد النبي (ﷺ)، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (النحل: ١٠٢)،كما جعله مصدر راحة وإطمئنان للمؤمن، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨)، وكم أسعد هذا القرآن قلوباً مولعة ومشتاقة للرحمن ومتعطشة للقاءه، فتجد كلامه تعالى خير دواء وسكن ينزل برداً وسلاماً على القلب والروح فتسعد النفس بترتيله فما أعظمها نعمة هي

نعمة القرآن،وهذا إنما يفهمه ويشعر به المؤمن كامل الإيمان الذي يتوق للقاء الرفيق الأعلى.

وسيبقى هذا القرآن معجزاً بلفظه ومعناه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ (سورة النساء:٨٢).إن هؤلاء المنافقين والذين فى قلوبهم مرض قد خيب الله سعيهم، وكشف خباياهم، ورأوا بأعينهم سوء عاقبة الكافرين وحسن عاقبة المؤمنين، فهلا دفعهم ذلك إلى الإيمان وإلى تدبر القرآن وما اشتمل عليه من هدايات وإرشادات وأخبار صادقة، وأحكام حكيمة، تشهد بأنه من عند الله، ولو كان هذا القرآن من عند غير الله أى من إنشاء البشر لوجدوا فى أخباره، وفى نظمه، وفى أسلوبه، وفى معانيه اختلافاً كثيراً فضلا عن الاختلاف القليل، ولكن القرآن لأنه من عند الله وحده قد تنزه عن كل ذلك وخلا من كل اختلاف سواء أكان كثيراً أم قليلا.

فالمراد بالاختلاف هنا هو تباين النظم، وتناقض الحقائق، وتعارض الأخبار وتضارب المعانى، وغير ذلك مما خلا منه القرآن الكريم لأنه يتنافى مع بلاغته وصدقه. وفى ذلك يقول صاحب الكشاف: قوله تعالى: ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ أى: لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه فكان بعضه بالغا حد الإعجاز. وبعضه قاصراً عنه تمكن معارضته، وبعضه إخباراً يغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخباراً مخالفا للمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعانى، وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم.فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائقة لقوى البلغاء، وتناصر معان، وصدق أخبار دل على أنه ليس إلا

من عند قادر على ما لم يقدر عليه غيره، عالم بما لا يعلمه أحد سواه.

فالآية الكريمة تدعو الناس فى كل زمان ومكان إلى تدبر القرآن الكريم وتأمل أحكامه، والانقياد لما اشتمل عليه من توجيهات وإرشادات وأوامر ونواه، ليسعدوا فى دنياهم وآخرتهم. فالتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبدا، ومستوياتها ومجالاتها , مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها. ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها – بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه – ما يملك إدراكه , في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى. ومن ثم فإن كل أحد , وكل جيل , مخاطب بهذه الآية. ومستطيع – عند التدبر وفق منهج مستقيم – أن يدرك من هذه الظاهرة – ظاهرة عدم الاختلاف , أو ظاهرة التناسق – ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه.

القَرَائِنُ اللَّفْظِيَّةُ:

من أبرز معالم إعجاز القرآن الكريم ظاهرة القرائن اللفظية، وهي ذات التأثير الخاص على الوضع اللغوي والتي تسبب صرف اللفظ عن معناه الحقيقي، وهذا هو الشيء الذي يحصل في الاستعمالات المجازية بما للمجاز من مدلول عام يشمل الاستعارة والكناية وغيرهما.وقبل الخوض في الحديث عن القرائن اللفظية في القرآن الكريم يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة بغير إخلال أو تفريط عن مصلح القرينة وما يرتبط بها من مواضعات ومصطلحات أخرى.

القرينة لغة:

القرينة في اللغة مأخوذة من المقارنة، وهي المصاحبة، ويعرفها اللغوي ابن فارس في كتابه "معجم مقاييس اللغة" بأنها: " يقال فلان قرين فلان، أي مصاحب، ويقال قرنت الشئ بالشئ وصلته به، وتطلق القرينة على نفس الإنسان لاقترانا به، كما تطلق على الزوجة، فيقال فلانة قرينة فلان أي زوجته".

القرينة شرعاً:

يؤكد الشيخ صالح السدلان (١٤١٦هـ) على أنه لم يتعرض لتعريف القرينة في الاصطلاح الشرعي إلا المحدثون، ولم يعرفها الفقهاء القدامى ولكن استعملوها بألفاظ مترادفة مثل: القرائن والعلامات والأمارات. ويرجع الشيخ السدلال السبب في ذلك إلى ظهور معناها ووضوح دلالتها على المراد بها.

وممن تعرض لمواضعة القرينة من الجهة الشرعية الشريف الجرجاني في كتابه التعريفات فقال عنها: " إنها أمر يشير إلى المطلوب ". أما مصطفى الزرقاء فيعرفها بأنها: "كل أمارة ظاهرة تقارن شيئاً خفياً وتدل عليه، وهي مأخوذة من المقارنة بمعنى الموافقة والمصاحبة". أما الشيخ عبد العال عطوة فيعرفها بأنها: " الأمارة التي تدل على أمر خفي مصاحب لها بواسطة نص أو عرف أو سنة أو غيرها". وتنقسم القرينة في الشريعة الإسلامية إلى ثلاثة أقسام رئيسة وهذا ما أشار إليه الشيخ صالح بن غانم السدلال، حيث حدد هذه الأقسام فيما يلي:

(أ) القرينة باعتبارمصدرها.

(ب)القرينة باعتبار علاقتها بمدلولها.

(ت)تقسيمها باعتبار قوة دلالتها.

القرينة قانوناً:

أما رجال القضاء والقانون فيرون القرينة أنها ما يستنبطه المشرع أو القاضي من أمر معلوم للدلالة على أمر مجهول. وهذا ما قضت به محكمة النقض المصرية في تعريفها لمفهوم القرينة بأنها استنباط أمر مجهول من واقعة ثابتة، بحيث إذا كانت هذه الواقعة محتملة وغير ثابتة بيقين، فإنها لا تصلح مصدراً للاستنباط.

وقد أشار أستاذنا الدكتور تمام حسان في كتابه الماتع " البيان في روائع القرآن " إلى القرينة اللفظية بأنها عنصر من عناصر الكلام يستدل به على الوظائف النحوية " فيمكن الاسترشاد بها أن نقول هذا اللفظ فاعل، وذلك مفعول به ". ويذكر أن مثل هذه القرائن كمثل معالم الطريق التي يهتدى بها المرء إلى المكان الذي يقصده. وتختلف القرائن باختلاف اللغات، ومن القرائن اللفظية في اللغة العربية قرينة البنية والإعراب والربط والرتبة والتضام، والسياق.

قرينة البنية:

قرينة البنية هي دلالة صورة الكلمة على المعنى النحوي، بمعنى آخر القرينة هي الدليل، أما البنية فهي كما يعرفها الدكتور تمام حسان إطار ذهني مجرد للكلمة المفردة وليست الكلمة ذات المعنى المفرد.

قرينة الرتبة:

هي قرينة نحوية ووسيلة أسلوبية، أي أنها في النحو قرينة على المعنى وفي الأسلوب مؤشر أسلوبي ووسيلة إبداع وتقليب عبارة واستجلاب معنى أدبي.

قرينة السِّياقِ:

يشير الدكتور أنس وكاك في دراسته المعنونة بـ " السياق وأهميته في سلامة الاستدلال" إلى قرينة السياق بقوله: " المتعلق والبعد والمجرى الذي يأتي الكلام منصبا فيه، فسياق الكلام أسلوبه ومجراه الذي يجري فيه. والسياق من حيث هو قرينة كبرى أو مجموعة قرائن صغرى ينقسم قسمين: سياق لغوي (مقالي) يعتمد على القرائن اللغوية التي يتضمنها الدليل و يستدل بها على مدلوله من جهة اللفظ والمعنى لتحديد المعنى اللغوي، أو ما يعبر عنه البعض بالمعنى النحوي أو الوظيفي للجملة.

وسياق غير لغوي (مقامي) يعتمد على سائر القرائن الأخرى المرتبطة بالدليل والمدلول لتحديد مراد المتكلم بحسب مقتضى الحال،و هذا المعنى المقصود في خطاب المتكلم هو ما يعبر عنه البعض بالمعنى الوظيفي المراد من الخِطاب،ومقتضى الحال يشمل عناصر كثيرة تتصل بالمخاطِب والمخاطَب وسائر الظروف التي تحيط بالخِطاب، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة، ألا ترى إلى اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة في القرآن، فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معان أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

ويؤكد الدكتور تمام حسَّان على اعتبار قرينة السياق في تحديد المعنى المراد

من النَّص، وبيان اعتماد هذه القرينة على مختلف القرائن من داخل النص وخارجه، بقوله: "وهكذا تمتد قرينة السياق على مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللغة من حيث مبانيها الصرفية وعلاقاتها النحوية ومفرداتها المعجمية، وتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية إلى عقلية إلى طبيعية، كما تشتمل على المقام بما فيه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية كالعادات والتقاليد ومأثورات التراث، وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية، مما يجعل قرينة السياق كبرى القرائن بحق؛ لأن الفرق بين الاستدلال بها على المعنى، وبين الاستدلال بالقرائن اللفظية النحوية كالبنية والإعراب والربط والرتبة والتضام، هو فرق ما بين الاعتداد بحرفية النَّص والاعتداد بروح النص، وقرينة السياق هي التي يحكم بواسطتها على ما إذا كان المعنى المقصود هو الأصلي أو المجازي، وهي التي تقضي بأن في الكلام كناية أو تورية أو جناسا، وهي التي تدل عند غياب القرينة اللفظية على أن المقصود هذا المعنى دون ذاك؛ إذ يكون كلاهما محتملا".

المشْتَرَكُ اللَّفظِي:

يعرف ابن فارس المشترك اللفظي في كتابه معجم مقاييس اللغة بأنه: "اللَّفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل اللغة". وظاهرة الاشتراك اللفظي من بين أهم الظواهر التي تمتاز بها اللغة العربية.

وقد بحث عُلَماءُ اللُّغة القدماء في هذه الظاهرة كما اختلفوا في وجودها وفوائدها وتفرقوا فريقين، فريق منكر وفريق قائل بالظاهرة مدافع عنها،كما احتج كل منهما بعلل واستدلالات بغية إثبات صحَّة مذهبِه ودَحض مذْهَب معارضه.

ويعد سيبويه (ت ١٨٠ هـ) هو أوّل من أشار إلى المشْترك اللَّفظي حيث ذكره في تقسِيمات الكلامِ في كتابهِ قائلا: "أعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين واختلاف اللَّفظين والمعنى واحد واتفاق اللَّفظين واخْتلافِ المعنيين، واتفاق اللفظين والمعنى مختلف، قولك: وجدت عليه من الموجدة ووجدت إذا أردت وجدان الضالّة "وأشباه هذا كثير".

أما الإمام الشَّوكَاني فيرى المشترك اللَّفظي أنه: "اللَّفظةُ الموضوعةُ لحقيقتين مختلفتين، أو أكثر، وضعا أولا، من حيث هما كذلك. فخرج بالوضعِ، ما يدل على الشَّيء بالحقيقة، وعلى غيره بالمجاز، وخرج بقيد الحيثيَّة، المتواطئ. فإنه يتناول الماهيات المختلفة، لكن لا من حيث هي كذلك، بل من حيث إنها مشتركة في معنى واحد". بينما يذهب تاج الدين السبكي إلى أنه "اللفظ الواحد، الدال على معنيين مختلفين، أو أكثر، دلالة على السواء، عند أهل تلك اللغة. سواء كانت الدلالتان مستفادتين من الوضع الأول، أو من كثرة الاستعمال، أو كانت إحداهما مستفادة من الوضع الأول، أو من كثرة الاستعمال. أو كانت إحداهما مُستفادة من الوضع، والأخرى من كثرة الاستعمال.

ومن قولنا الواحد، احتراز عن الأسماء المتباينةِ والمترادفة، فإنه يتناول الماهيّة، وهي معنى واحد، وإن اختلفت محالها. وقولنا عند أهل تلك اللغة إلى آخره، إشارة إلى أن المشترك، قد يكون بين حقيقتين لغويتين، أو عرفيتين، أو عرفية ولغوية.

الفِرَاسَةُ:

يُعرِّف ابن العَربي الفِراسَةَ بكسر الفَاء بأنها هي التَّوسُّمُ . تَفَعُّلٌ من الوسم . وهي العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها. وهناك ثمة فوارق بين القرينة والفريسة وأضا نقاط اتفاق، منها أن كلا من القرينة والفراسة متفقتان في أن كلا منهما علامة، ولكن القرينة علامة ظاهرة محسوسة، أما الفراسة فإنها تعتمد على حجج وأمور غيبية خفية لا يدركها إلا المتفرس. والقرينة قابلة للإثبات، أما الفراسة فلا يمكن إثباتها بطريق الشهادة.

قَرِيْنَةُ السِّيَاقِ:

السِّياقُ في مجال تفسيرِ القُرآن لا يمكن الحديث فيه بمعزلٍ عن علمِ المناسبة أو التَّناسبِ؛ لأنه قد ينظر إليه نظرةً أعم، فيتجاوز المفسِّر النظر في لُحمة المقاطع المتَّصلة إلى ما هو أشمل من ذلك، وهو النظر في سياق السورة كلها، وكيف انتظمت معاني يأخذ بعضها بحجز بعض، وهو في ذلك يوضح المناسبات الخاصة بين آية وأخرى داخل السورة موضع الدرس، أي: دون أن يطغى الاهتمام بالسياق الأعم على السياق الأخص .

بل منهم من عُني بدرس التناسب والمشاكلة في القرآن كله كما فعل الإمام أبو جعفر ابن الزبير شيخ أبي حيان، وبرهان الدين البقاعي في كتاب سماه" :نظم الدرر في تناسب الآي والسور"، والسيوطي في كتابه: "تناسق الدرر في تناسب السور." وممن عُني به من المفسرين الإمام الفخر الرازي في "مفاتيح الغيب"، وأبو حيان في "البحر المحيط"، وهو علم غزير جدا قلت عناية العلماء به.

وممن عُني به –أيضا– من المعاصرين صاحب الظِّلال؛ فإنه نظر إلى السياقات العامة لكل سورة على حدة، وبين أن كل سورة سيقت لخدمة هدف معين، وأن جميع عناصر السورة وإن بدا بينها – أحيانا– في الظاهر شيء من عدم التناسب، فهي كلها في خدمة السياق العام للسورة. وقال القاضي أبو بكر ابن العربي في "سراج المريدين": "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني علم عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة،ثم فتح الله ـ عزَّ وجل ـ لنا فيه، فلما لم نجد له حَمَلة،و رأينا الخلق بأوصاف البطالة،ختمنا عليه،و جعلناه بيننا و بين الله،و رددناه إليه".

أنْواعُ التَّناسُبِ:

ينقسم التناسب إلى عدة أنواع منها ؛ تناسب الجزاء وهذا النوع من التناسب يكثر وقوعه في الآيات التي تضمنت الإشارة إلى جزاء الله على الأفعال السيئة؛ كالاستهزاء، والخداع، والمكر، والنسيان، ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم مايلي من الآيات الكريمة:

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥)﴾ (البقرة:١٤.١٥).

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (النساء:١٤٢).

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (آل عمران:٥٤).

ومن أنواع التناسب أيضاً ومن أنواع التناسب تناسب الجنس، وهو كثير في القرآن الكريم، والمراد من هذا النوع: استعمال لفظين، يجمعهما أصل واحد في اللغة، للدلالة على معنيين، ويسمى عند البلاغيين (الجناس). وتناسب الجنس، إما أن يكون تناسباً بين اسم وفعل، وإما أن يكون تناسب الجنس تناسباً بين فعلين، وإما أن يكون التناسب بين اسمين. ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم الآيات الكريمة التالية:

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ (البقرة: ٢٦٧).

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (الأنعام: ١٦٤).

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٩)

﴿ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ (آل عمران: ١٤).

وأيضاً من أنواع التناسب ما يسمى بالتناسب الصوتي ؛ وهذا النوع من التناسب يكون بين كلمتين لا يجمعهما أصل لغوي واحد، وإنما الذي يجمع بينهما تجانس الصوت، الذي يحسن في أذن المستمع، من أمثلة هذا النوع قوله تعالى:

(أ) قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ

وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤٤).

(ب)﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ٦١).

(ت)﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ (غافر: ٧٥).

(ث)﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (الكهف: ١٠٤).

وآخر ما نورده في هذا المقام من أنواع التناسب في القرآن الكريم ما عُرِف بالتناسب **البياني** ؛ وهو أن تكون هناك وحدة بين أجزاء الصورة البيانية، فلا تتنافر جزئياتها، بل تكون متآلفة غاية الائتلاف، ومنسجمة نهاية الانسجام. ومن أمثلة ذلك في القرآن الكريم:

(أ) هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (الملك: ١٥).

(ب)﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) ﴾ (المؤمنون: ٧١.٧٠).

(ت)﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (١٠٤) ﴾ (الأنعام: ١٠٣.١٠٤).

أقْسامُ السِّياقِ اللَّفْظِي:

النظم القرآني معجز ليس له نظير، وكثيراً ما يمكن الوصول الى معانيه من خلاله، فينظر إلى السياق وما به من قرائن تدل على المعنى بدقة، فيكون الإستدلال بها على الحقائق في التفسير. ويقسم السياق اللفظي على أساس قرب او بعدها فيه على قسمين: سياق لفظي متصل وهو (البسيط). وسياق لفظي منفصل، وهو (المركب).

أولاً ـ - السِّياقُ اللَّفظِي المُتّصِل (البسيط):

إن القَرينةَ الدَّلاليّةَ السّياقيّةَ، هي التي تكون في مجرى الكلام ونسقهِ، ويُراد بها ما يُصاحِب النص من دلالاتٍ وإشاراتٍ كاشفةٍ عن معناه، إذ إن هذه القرائن هي السبيل الرَّئيس للوصول إلى المعنى الحقيقي المراد للنص – أي نص – ولا سيما إذا كان هذا النص على مستوى عال من البلاغة كنص القرآن الكريم، فيكون الاحتكام إلى النص القرآني نفسه من خلال سياقه للكشف عن المعنى المراد في الآيات الكريمة كالإيجاز بالحذف، والتقديم والتأخير والتكرار. فصارت هذه القرائن منارَ المفسرين للوصول إلى المراد وحجتهم في خلافاتهم، ومناظراتهم في إثبات ما يعتقدون.

وقد نبَّه الإمام علي (عليه السلام) على هذا النوع من القرائن في (نهج البلاغة)، في ضوء وصفه القرآن الكريم، إذ يقول: ((كتاب الله، تبصرون

به، وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض)، فهو (ﷺ) يتحدث عن تفسير القرآن بالقرآن، في ضوء قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (القيامة: ١٧-١٩)، وهو أسلُوبٌ تبنَّاه كثيرٌ من المفسرين، من القدماء والمحدثين، ويحصل بالقرائن السياقيّة للكشف باللَّفظ المفردِ أو المركبِ عن معنى لفظ مفرد أو مركب، قريب منه في الكلام غير بعيد عنه، وهو فيما تبيّن بعد البحث أنه ثلاثة أنواع: متقدم، ومتأخر، ومكتنف.

ويُعَد هذا الأسْلُوبُ أفضل أسَاليب تفسيرِ القرآن ؛لأنه ينبع من داخلِ النَّص المعجز الكريم لا من خارجه، إذ إن كلام الله – تعالى – إذا كان شَاهداً لكلامِ الله، فهو خيرُ شَاهدٍ، ودونه كل الشَّواهد . والقَرينة الدَّلاليّة السِّياقيَّة في القُرآنِ الكَريم لها ثلاثة رتبٍ أو مواضع: متقدمة على اللَّفظة التي تفسرها، أو متأخرة عنها، أو مكتنفة لها من جانبيها السّابق لها واللاحق بها، وجميعها من داخل النص القرآني.

(أ) القَرِيْنَةُ المُتَقدّمةُ:

وهي القرينة اللفظية السياقية التي تسبق ما تفسره وتدل عليه، إذ تتقدم في صورة من الصور، بأن تكون قريبة منه، وغير تالية له. ومن أمثلة هذه القرينة السياقية، ما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى، يصف المشركين حين يُدعون إلى الإيمان وسماع القرآن: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ (المدثر: ٥٠-٥١)، فشُبِّه المشركون من حيث حالهم في الإعراض عن سماع القرآن بالحُمر الوحشية المستنفرة، وهي التي فرت خوفاً وهلعاً من شيء يطاردها.

ومثال القرينة المتقدمة أيضاً قوله تعالى:﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (فصلت: ٣٤)، فقد فُسِّرت الآية تفسيرات عِدّة، منها: أن الله ﷻ أمر المؤمنين بالصبر عند الغضب والحلم والعفو عند الإساءة. وقيل: إنه خطاب للنبي مُحَمَّد ﷺ في أن يدفع بحقهِ باطلهم وبحلمه جهلهم وبعفوه إساءتهم. فإذا دفع خصومه بلين ورفق ومداراة صار، عدوه في الدين كأنه وليه القريب في دينه وحميمه في النسب. وقيل معناه: لا تستوي الملة الحسنة التي هي الإسلام، والملة السيئة التي هي الكفر، وفُسّرت أيضاً بأن شعارها: ادفع بالسلام على من أساء إليك.

ومن القرائن السياقية المتقدمة أيضاً، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ (الكهف:١٢). ففي الآية الكريمة وردت لفظة (البعث)، والبعثُ لغةً، هو: الإرسالُ، كبعثِ الله ﷻ من في القُبورِ . ولفظُ البعثِ تختلف دلالته بحسبِ اختلاف ما عُلِّق به، ففي الآية السابقة البعث يعني: إحياء الموتى الذي خصّ به الله ﷻ بعض أوليائه .

وفُسِّر البعث في الآية الكريمةِ بالإيقاظِ من النَّوم، بالقرينة المتقدمة، وهي قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ (الكهف: ١١)، أي: أنمناهم سنين ذات عدد وسددنا آذانهم بالنوم الغالب على نفوذ الأصوات إليها سنين كثيرة ؛ لأن القائم إنما ينتبه بسماع الصوت ودل سبحانه بذلك على أنهم لم يموتوا وكانوا نياماً في أمن وراحة، وجمام نفس، وهذا من فصيح لغات القرآن التي لايمكن أن يترجم بمعنىً يوافق اللفظ، فبذلك أثبتت القرينة المتقدمة كون البعث كان الإيقاظ من النوم لا الإحياء، والدليل على أنهم كانوا نياماً، قوله تعالى في موضع آخر:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ﴾ (الكهف: ١٨)، أي تظنهم يقظين، مع أنهم في واقع الحال نيام بقدرة الله.

(ب) القرينة السياقية المتأخرة:

وهي القَرينَة التي تأتي بعد اللفظة المبهمة، مفسرة وموضحة لها، فتحدد معناها في السياق اللفظي. وهناك كثير من القرائن المتأخرة في التعبير القرآني، منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: ٣٢).

ومن القرائن السياقية المتأخرة أيضاً، حمل (التين والزيتون)، في قسم الله ﷻ بهما في قوله تعالى: ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴾ (التين: ١)، على أنهما منابت التين والزيتون، وهي بلاد الشام، وليس الفاكهتين المعروفتين أقسم الله بهما لما فيهما من الفوائد الجمّة والخواص النافعة ، بل قيل: إن المراد بالتين، الجبل الذي عليه مدينة دمشق، وبالزيتون، الجبل الذي عليه بيت المقدس. ولعل اطلاق اسم الفاكهتين على الجبلين لكونهما منبتيهما، ولكونهما مبعثي جمّ غفير من الأنبياء. وهذا هو الرأي الراجح، بقرينة السياق بعدها، في قوله تعالى:﴿وَطُورِ سِينِينَ ۞ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (التين: ٢–٣)، وهما أيضاً أماكن مهبط للأنبياء والرسل، و(طور سينين) أيضاً جبل، وهو الذي كلم الله ﷻ فيه موسى بن عمران عليه السلام ويسمى طور سيناء. وقد ورد في سياق آخر بهذه الصيغة ﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلآكِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٠). والمراد بـ(البلد الأمين)، مكة المشرفة، وهي مكان مقدس، ومبعث الأنبياء ومهبطهم من أمثال: إبراهيم واسماعيل (عليهما السلام) ، ومحمد ﷺ .

فبذلك تكون القرينة السياقية من المحاور الأساسية التي اعتمدها المفسرون في الوصول إلى الدلالة الصحيحة للنصوص القرآنية، فضلاً عن معنى المفردة، وقرينة الحال، والقرينة العقلية، وتكون القرينة الفيصل فيه، في ترجيح دلالة دون أخرى من خلال النظر إلى القرائن التي فيه، سواء أكانت محيطة بالنص مكتنفة إياه، أم كانت متقدمة عليه، أو متأخرة عنه. ولولا وجود القرائن السياقية لم نتوصل إلى المقصود في كثير من النصوص القرآنية.

(ج) القَرائِنُ السِّياقيَّةُ المُكْتَنفة:

وهي القَرائِنُ التي تَكون محيطةً بالنص من جانبيه، مفسرة له وموضحة إيَّاه، ومؤكدة لمعناه، وهي كثيرة في القرآن الكريم، منها: قوله تعالى في آية التطهير: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣).

فقد نزلت هذه الآية خاصة برسول الله مُحَمَّد ﷺ وأهل بيته وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)،، عندما ألقى النبي مُحَمَّد ﷺ عليهم الكساء، وقال: هؤلاء أهل بيتي . واختلف المفسرون في كون هذه الآية نزلت بهم (أهل البيت) الخمسة فقط، أم يُقصد بـ(أهل البيت) أزواج النبي، وحجتهم في ذلك أن آية التطهير كان يكتنفها آيات نزلت في نساء النبي ﷺ، فالآية بذلك تكون لأجلهن أيضاً، وهذا ما ذهب إليه عدد من المفسرين مثل البيضاوي، إذ يقول: "الاحتجاج بذلك على عصمتهم وكون اجماعهم حجة ضعيفة لأن التخصيص بهم لايناسب ما قبل الآية وما بعدها. والحديث يقتضي أنهم أهل البيت لا أنه ليس غيرهم" .

ثانياً ـ القرائن المنفصلة (المركبة):

وهي قرائن لفظية غير سياقية منفصلة عن النص بعيدة عنه، متقدمة عليه أو متأخرة عنه، أو مكتنفة له من جانبيه، إلا أنها في غير مجرى الكلام، بل هي في كثير من الأحيان في موضع آخر من النص الكريم، أو سورة أخرى، لكنها مرتبطة به دَلالياً.

وكان هذا اللون من القرائن معروفاً ومتداولاً في بيت النُّبوةِ والرِّسَالةِ، وكانت هذه الطريقة هي المستأثرة لديهم في تفسير القرآن، وتأويله. فالنَّبي مُحَمَّد (ﷺ) أول من اتخذ القرآن قرينة دلالية للقرآن، منها قوله حين فسَّر (الظُّلم)، في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام: ٨٢) ، فظنَّ فريق من الصحابة ﷺ أن الظلم هنا "بخس الحق، وهضم حقوق الناس، فقالوا: يا رسول الله: وأينا لم يظلم نفسه"؟، فبيّن (ﷺ) أن الظلم هنا ليس الذي يذهبون إليه، بل هو الشرك، واحتج له بقوله تعالى في وصية لقمان لابنه وهو يعظه: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان: ١٣). ففسر ﷺ القرآن بالقرآن – وهو أبلغ وأقوى – فهو أول مفسر في الإسلام للقرآن بالقرآن.

وقد أطلق على هذا النوع من التفسير، اسم تفسير القرآن بالقرآن ، وهو أحسن الطرق، فقد ذكر العلماء: أنه من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن ؛ فما أجمل منه في مكان فقد فُسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر منه، والقرينة على ذلك قوله تعالى:﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ۞فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ۞ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾(القيامة:١٧–١٩).

ومن القرائن المنفصلة في القرآن الكريم، الواردة لتفسير قوله تعالى، في حديثه عن وجوب أو جواز قصر الصلاة في حالة السفر أو الخوف: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنْ الصَّلاَةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٠١)، فكان التشريع لهذه الحالة في هذه الاية وجوب التقصير في السفر، لقوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ بقرينة قوله تعالى في الصفا والمروة: ﴿ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ (البقرة: ١٥٨)، فنلحظ أن الطواف بهما واجب مفروض ؛ لأن الله تعالى ذكره في كتابه ، و(الجناح): هو الميل عن الحق، فكانت القرينة اللفظية المنفصلة متقدمة على الآية المذكورة.

ومن القرينة اللفظية المنفصلة، قوله تعالى: ﴿ لاَ يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمْ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (الأنبياء: ١٠٣)، فالفزع الأكبر، هو الخوف الأعظم، وقد فسّر على أربعة أقول:

الأول: إنه عذاب النار إذا طبقت على أهلها. والثاني: حين يذبح الموت على صورة كبش أملح، وينادي: يا أهل الجنة خلود ولا موت. ويا أهل النار خلود ولا موت. والثالث: حين يؤمر بالعبد إلى النار. أما الرابع: وهو مروي عن ابن عباس، أنه النفخة الأخيرة، واحتج لذلك بالقرينة المنفصلة المتأخرة، في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ ﴾ (النمل: ٨٧).

الفصل الثالث

نَظَراتٌ في التَّعْبِيرِ القُرآني

أشرنا في الفصل السابق إلى أن اللفظة الواحدة قد تخرج عن دلالتها المعجمية الحرفية إلى دلالات ومعان أخرى بحسب ورودها داخل سياق لغوي متصل، وللسياق بذلك أثره في فهم الالفاظ بدلالتها التي يقصدها المرسل. إذ لا يمكن فهم أية كلمة على نحو تام بمعزل عن الكلمات الأخرى ذات الصلة بها التي تحدد معناها، وفي التعبير القرآني تفردت طائفة من الألفاظ بقرينة السياق بدلالة خاصة، جاوزت حدود معناها المعجمي إلى معانٍ جديدة ذات إيحاءات خاصة، والقرآن الكريم كنص لغوي معجز وفريد اتسم بالدلائل اللغوية الشاهدة على إعجازه، فمثلاً نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَتْ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٤٢)، فكلمة (اصطفاك) الأولى بمعنى اختارك، والثانية بمعنى فضلك، وهذا النوع من التكرير للكلمات والأصوات يثير في النفس إحساساً بجمال التعبير، من خلال تجاوب الأصوات وتناغم الأصوات.

ومن أسباب جمال الجناس في التعبير القرآني، تلاؤم الحروف وتناسب الألفاظ، فيحدث التجاوب الموسيقي الصادر من تماثل الكلمات تماثلاً كاملاً أو ناقصاً، ويلخص الفيروز أبادي هذه الفائدة بقوله: " وأما تلاؤم

الكلمات والحروف ففيه جمال المقال، وكمال الكلام"، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ (البقرة: ٢٤).

وفي هذا الفصل نورد عدداً من الأمثلة بغير إخلال أو تفريط إن استطعنا ذلك التي توضح وتشير إلى اختلاف دلالة اللفظ الواحد باختلاف وروده وذكره في سياق لغوي معين.

١ ـ البَغْتَةُ والفَجْأَةُ:

اكتسبت لفظة البغتة من السياق القرآني إيحاءً خاصاً بها، فهي في أصل اللغة: مشتقة من باغَتَه مباغتةً: أي فاجأه بَغْتَةً . والبغت: مُفاجأة الشيء من حيث لا يحتسب. إذن (البغتة) في اللغة تعني (المفاجأة)،فهما لدى غير المدقق في المعنى اللغوي بمعنى واحد. أما في الاستعمال القرآني فهما متباينان ؛ إذ احتملت (البغتة) عنصراً دلالياً إضافياً على الفجأة؛ لأن هذه اللفظة لم يستعملها السياق القرآني نهائياً، ولو تتبعنا سياق البغتة في القرآن كله، بورودها ثلاث عشرة مرة، لوجدنا فيها عنصراً دلالياً إضافياً، وهو (التخويف بالعذاب).

واستقراء الآيات يؤدينا إلى أنها لا تستعمل إلا في سياقين لا ثالث لهما، أحدهما: الوعيد بوقوع القيامة. والآخر: الوعيد بوقوع عذاب في الدنيا وشيك، كما في قوله تعالى يؤكد فيه وقوع العذاب على الكافرين، بموعد ثابت قادم هو يوم القيامة، إذ قال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمّىً لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥٣)، وفي قوله تعالى يبين فيها طريقة مجيء العذاب للكافرين

يوم القيامة، حين يأتي مفاجئاً: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ (الأنعام: ٣١).

وقد اكتسبت البغتة في السياق القرآني إيحاءً خاصاً بها، هو العذاب، فضلاً عن المعنى اللغوي الذي تحمله وهو (الفجأة)، وعند مجيء الساعة والعذاب للكافرين دون توقع لوقته مع الايذاء لمن لم يُعدّ لتلك الساعة العدّة، من الهداية والإيمان. ولا يعلم أحد متى مجيء هذه الساعة.

وقد تنبه بعض المحدثين إلى أن السر في استعمال السياق القرآني لفظة (البغتة) فقط دون لفظة (الفجأة)، مع أن لهما المعنى اللغوي نفسه، وهوأن في البغتة عنصراً دلالياً إضافياً غير موجود في الفجأة، بل هو زائد عليها، وهو (التلبس بالعقاب) دنيوياً كان أو آخروياً ؛ وبذلك فإن لفظة (الفجأة) لا تمنح السياق الإيحاء الكامل المعبّر عن الحدث القرآني بشكل دقيق وكامل كما تمنحه لفظة (البغتة) ؛ لأن الثانية اكتسبت من السياق القرآني معنىً إضافياً، هو الإشعار بالأذى والعقوبة.

٢ ـ القَدَرُ:

من الألفاظ التي تباينت دلالتها أيضاً في القرآن الكريم باختلاف ورودها داخل سياق النص القرآني المطهر لفظة (القدر) ومشتقات حروفها الأصلية الثلاثة وهي: ق د ر، فغالباً ما نجد معنى القضاء مرادفاً مماثلاً لكلمة القدر كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً﴾ (الأحزاب: ٣٨) أي وكان أمره الذي يقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد

عنه ولا معدل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.، وأيضاً قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (الواقعة: ٦٠) أي صرفناه بينكم، وقال الضحاك:ساوى فيه بين أهل السماء وأهل الأرض.

ولكن تعددت دلالات كلمة (القدر) في القرآن الكريم في أكثر من موضع، فمن تلك الدلالات ورودها بمعنى (التمكن) كما في قوله تعالى: ﴿لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ (إبراهيم:١٨) أي فلم يقدروا على شئ من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا، وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (يونس: ٢٤) وفي هذه الآية الكريمة ضرب الله تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة وزينتها، وسرعة انقضائها وزوالها، بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض مما يأكل الناس من زروع وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها وما تأكل الأنعام، ومعنى قادرون عليها أي على جذاذها وحصادها فبينما هم كذلك إذا جاءتها صاعقة أو ريح شديدة باردة فأيبست أوراقها وأتلفت ثمارها.

وجاءت لفظة(القدر) بمعنى (التدبير) في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في سورة طه: ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ (طه: ٤٠) يقول الله تعالى مخاطباً لموسى (عليه السلام): إنه لبث مقيماً في أهل مدين فاراً من فرعون وملأه يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل،ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله تبارك وتعالى، وهو المسير عباده وخلقه فيما يشاء ولهذا قال تعالى:﴿ ثُمَّ

جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾، أي على موعد وهذا رأي مجاهد، وقال قتادة: على قدر الرسالة والنبوة. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴾(المدثر:١٨-٢٠) أي إنما أرهقناه صعوداً لبعده عن الإيمان لأنه فكَّر، و﴿ قَدَّرَ﴾ أي تروَّى ماذا يقول في القرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال.

وجاءت لفظة (القدر) بمعنى التوقير والتعظيم مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾(الأنعام:٩١) أي وما عظموا الله حق تعظيمه إذ كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في قريش، واختاره ابن جرير، وقيل نزلت في طائفة من اليهود، وقيل في فنحاص وهو رجل منهم، وقيل في مالك بن الصيف، والأول أصح ؛ لأن الأية مكية واليهود لا ينكرون إنزال الكتب من السماء، وقريش والعرب قاطبة كانوا ينكرون إرسال مُحَمَّد (ﷺ) لأنه من البشر، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الزمر:٦٧).

وأتت مُشتقات كلمة (القَدَر) في القرآن الكريم بدَلالاتٍ مختلفةٍ، فمنها ما أشارت إلى معنى (التحديد) كقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (المؤمنون:١٨)، وفي هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى نعمه على عبيده التي لا تعد ولا تحصى في إنزاله القطر من السماء بقدر، أي بحسب الحاجة لا كثيراً فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه

من السقي والشرب والانتفاع به، حتى إن الأراضي التي تحتاج ماء كثيراً لزرعها ولا تحتمل دمنتها إنزال المطر عليها يسوق إليها الماء من بلاد أخرى كما في أرض مصر، ويقال لها الأرض الجرزيسوق الله إليها ماء النيل معه طين أحمر يجترفه من بلاد الحبشة في زمان أمطارها، فيأتي الماء يحمل طيناً أحمر، فيسقي أرض مصر، ويقر الطين على أرضهم ليزرعوا فيه ؛ لأن أرضهم سباخ يغلب عليهم الرمال.

وقوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(سورة الزخرف:١١).أي بحسب الكفاية لزروعكم وثماركم، وشربكم لأنفسكم ولأنعامكم.

وجاءت لفظة القدر بمعنى (التضييق والابتلاء) مثل قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾(سورة الرعد:٢٦)، يذكر الله تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء، لما في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً.

وقوله تعالى: ﴿ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾(سورة القصص:٨٢) أي ليس المال دليلاً على رضا الله عن صاحبه، فإن الله يعطي ويمنع، ويضيق ويوسع، ويخفض ويرفع، وهذا كما في الحديث المرفوع عن ابن مسعود: " إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم، وإن الله يعطي المال من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب"، وقوله تعالى في سورة القلم: ﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾(سورة القلم:٢٥)، أي قوة وشدة، وقال مجاهد: على جد، وقال

عكرمة: على غيظ، و﴿ قَادِرِينَ﴾ أي عليها فيما يزعمون ويرومون.

٣ ـ السَّغب والجُوعُ:

جاءت لفظتا (السغب) و (الجوع) بإيحاء خاصٍ بهما في التعبير القرآني. فالسغب لغة: مشتق من سَغَبَ يَسْغب سُغُوباً ومسغبةً. والساغِب: الجائع، والسَغبُ: الجوع من التعب. وقد قيل هو في العطش مع التعب . وهي مرادفة للجوع. و(السغب) و(الجوع) لفظتان، أكسبهما التعبير القرآني، إيحاء خاصاً بهما، فضلاً عن معناهما الأساس (المعجمي). فإذا ذكر الجوع في النص القرآني، فلا يكون إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، بقرينة السياق.

وقد وردت لفظة (الجوع) في التعبير القرآني خمس مرات، كانت في ثلاثة مواضع منها مقترنة بلفظة (الخوف)، فيكون السياق بهذه القرينة، سياق ابتلاء وامتحان، أو عقوبة لأصحاب النار، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة ١٥٥) ، أخبرنا الله عز وجل أنه يبتلي عباده أي يختبرهم ويمتحنهم فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى:﴿ فأذاقها الله لباس الجوع والخوف﴾ فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه ، فقد ذكر الجوع في موضعين منفرداً، ولكن قرينة السياق كانت واضحة في أنه عقاب وبلاء، وذلك في قوله تعالى يخاطب فيها نبي الله آدم ﷺ بأنه محفوظ في الجنة من بلاء الجوع والعُري،وذلك قبل نزوله إلى الأرض:﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى﴾ (طه: ١١٨). فيكون عدم الجوع فيها نعمة من نعم الله تعالى عليه وعلى

زوجه.

أما لفظة (السغب) فتذكر مع الرحمة و ((في حالة القدرة والسلامة))، نحو قوله تعالى يحث المؤمنين على إطعام الناس في يوم الجوع: ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴾(البلد: ١٤)، بقرينة السياق المتأخرة في قوله تعالى: ﴿يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ (البلد: ١٥-١٦). فبذلك تكون لفظة (الجوع)، قد اكتسبت من التعبير القرآني هنا معنى العقوبة والبلاء من السياق القرآني، أما لفظة (السغب)، فقد اكتسبت معنى الرحمة، والضعف.

٤ ـ المَطَرُ والغَيْثُ:

تُعد لفظة المطر من الألفاظ التي اكتسبت إيحاء خاصاً في التعبير القرآني أيضاً، فالمطر لغةً يعني: الماء المنسكب من السحاب ، أما في التعبير القرآني،فقد اكتسبت لفظته إلى جانب معناها المعجمي معنىً آخر، هو العقاب، بقرينة السياق اللفظي. فالمطر لم يرد في التعبير القرآني كما يقول الجاحظ في كتابه " البيان والتبين ": " إلا في موضع الانتقام، والعامة واكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث ".

وقد وهِمَ الراغب الأصفهاني حين عدّ لفظ (المطر) من ألفاظ الخير، وأن هناك صيغة مشتقة منها هي التي وردت للتعبير عن العذاب، وهي (أمطر)،فقد ذكر أن مطر: " يُقال في الخير، و(أمطر) في العذاب "، وإذا رجعنا إلى النص القرآني نجده يعبّر بهذه اللفظة عن الشر والعقاب، بكل اشتقاقاتها، وبقرينة السياق، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ

مَطرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٧٣) أي أنزل الله على أولئك العذاب الذي عم جميعهم وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

والمطر يوحي بالتدفق القوي والغزارة، أكثر من أية لفظة أخرى تعبّر عن نزول الماء من السماء. والذي ساعد على هذا الايحاء، صوت (الطاء) المطبق كما أشار الدكتور كمال بشر في كتابه " علم اللغة العام"، الذي يصور نزول العذاب من السماء فنشعر بإطباقه عليهم. فبذلك تكون هذه اللفظة قد ناسبت غضب الله ﷻ وشدة انتقامه بنزول ذلك العقاب الشديد عليهم من حجارة وغيرها. كالذي في قوله تعالى يتحدث عن قوم لوط ﷺ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف: ٨٤). فنلحظ أن لفظتي (مطر) و(أمطرنا) في النص القرآني قد دلّتا معاً على نزول العذاب الشديد، لا نزول الغيث الذي هو نعمة ورحمة للعباد.

ويشمل نزول المطر في التعبير القرآني، فضلاً عن الماء، الحجارة، نحو قوله تعالى، في إمطار الحجارة: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ﴾ (هود: ٨٢)، أي أنه مطر يوحي بالعقم والخراب. والسجيل في اللغة: حجارة كالمدر، وهو حجر وطين مختلط، ويفسر أنه فارسي مُعرب دخيل. ويقال: هذا الشيء مسجل للعامة، أي مرسل من شاء أخذه أو أخذ منه.

أما الغيث فهو الماء النافع النازل من السماء، المنبت للكلأ ، نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الشورى: ٢٨)، وهذا يعني أنه الماء المثمر الذي يحمل الخير معه، وذلك بقرينة السياق اللفظي المتأخر. والذي قوى هذا الإيحاء

هو صوتا (الغين والثاء) فرخاوتهما كما يذكر الدكتور بسام بركة في كتابه " أصوات اللغة العربية "، قد ناسبت نزول الماء الخفيف الذي أنعش ما نزل عليه، فأنبت به.

٥ ـ الفتح:

أيضاً من الألفاظ التي اكتسبت إيحاء خاصاً في التعبير القرآني لفظة الفتح، من الفعل الثلاثي فَتَحَ) ومشتقاته، فلقد اختلفت دلالة الكلمة باختلاف السياق الي وردت فيه، ودلت على عدة معاني منها الصد، والضد، والعطاء، والنصر، والقضاء، والحكم.

فمن معنى الصد والضد قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ (الأنعام:٤٤)، أي أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم ففتح الله عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:٤٠)، وقيل في تفسير هذه الآية الكريمة أن المراد لا يرفع لهم منها عمل صالح ولا دعاء وقال بهذا مجاهد وسعيد بن جبير، وقيل لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء ورى ذلك الضحاك عن ابن عباس وبه قال السدي. ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن البراء بن عازب قال: " خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى

القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله ﷺ،وجلسنا حوله كأن على رؤسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال: " استعيذوا بالله من عذاب القبر . مرتين أو ثلاثاً . ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال إلى الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان . قال: فتخرج تسيل كما يسيل القطر في السقاء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، هذا بخلاف العبد الكافر.

وجاءت لفظة (الفتح) بمعنى (القضاء) أو (الحكم) كما في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (الأعراف:٨٩)، أي احكم بيننا وبين قومنا وانصرنا عليهم وأنت يا الله خير الحاكمين فإنك العادل الذي لا يجور أبداً. وقوله تعالى: ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِي مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء:١١٨).

ومن أمثلة ورود كلمة (الفتح) بمعنى أعطى قوله تعالى: ﴿ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ (البقرة:٧٦)، أي تقرون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا به.

وأيضاً ما أفادت الكلمة معنى أعطى قول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(الأعراف:٩٦)، ويخبر الله تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس﴾ آي آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، وقوله تعالى: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض.

وجاءت لفظة (الفتح) بمعنى (النصر) كما في قوله تعالى: ﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (المائدة:٥٢)، يعني فتح مكة، وقيل: يعني القضاء والفصل، وقوله تعالى: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال:١٩)، يقول الله للكفار إن تستفحوا أي تستنصروا وتستقضوا الله وتستحكموه أن يفصل بينكم وبين أعدائكم المؤمنين فقد جاءكم ما سألتم؛ كما قال أبو جهل، حين التقى القوم: اللهم اقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة؛ فكان المستفتح، وقال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا: اللهم أعلى الجندين وأكرم الفئتين وخير القبيلتين، فقال تعالى: ﴿ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ ﴾ يقول: لقد نصرت ما قلتم وهو مُحَمَّد ﷺ.

٦ ـ الهوى:

تعني لفظة (الهوى)، لغةً: الموت، والحب، أما في التعبير القرآني فقد اكتسبت هذه اللفظة دلالة أخرى، وهي كما عرفها الراغب في المفردات: " ميل النفس إلى الشهوةِ... لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهيةٍ، وفي الآخرة إلى الهاوية " ، أي اتباع ما لا يحمد من الرغبات،ولا يحسن فعله من ذوي المكرمات، أي الرغبات النفسية الضعيفة ، نحو قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴾ (النازعات: ٤٠).أي خاف القيام بين يدي الله عز وجل.

ففي الآية الكريمة ورد النَّهي عَن (الهوى)، الذي هو اتباعِ الشَّهوات، والمَحَارم التي تشتهيها النفس وتهواها . فهو شيء مكروه، غير مرغوب فيه في الاسلام، بقرينة السياق المتأخر، في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ (النازعات:٤١) ؛ لأن من ينهى نفسه عن الهوى ينال الجنة التي تكون مأواه، فبذلك يكون (الهوى) غير مرغوب فيه.

٧ ـ أثر:

وردت كلمة " أثر " مرّتان في القرآن الكريم، ووردت مشتقاتها ١٩ مرة، ومنها " يؤثر، آثر، تؤثرون، أثرى، آثار، يؤثرون، أثارة "،، وكلمة " أثر " ومشتقاتها جاءت على ستة أوجه في المعنى، فجاءت بمعنى الاختيار والتفضيل كما في قوله تعالى: ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴾ (يوسف:٩١)، يقولون معترفين له بالفضل والأثرة عليهم في الخَلْق والخُلُق والسعة والملك وأقروا له بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه.

وقد تأتي لفظة (أثر) بمعنى الدليل كما في قوله تعالى: ﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الروم:٥٠)، والأثر هنا المقصود به المطر قال بذلك ابن كثير في تفسيره للقرآن الكريم.

٨ ـ سَلامٌ و السَّلام:

وردت كلمة سلام والسلام في القرآن الكريم بدلالتين فالأولى جاءت لفظة (سلام) على يحيى (عليه السلام) والثانية جاءت لفظة (السلام)على عيسى (عليه السلام)، قال تعالى في سورة مريم :﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا(١٢)وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا(١٣)وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا(١٤)وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

أما عيسى (عليه السلام) يقول تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا(٣٠)وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا(٣١)وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا(٣٢)وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا(٣٣)﴾.

وحِكمة مجيء (سلام) نكرة في سياق قصة سيدنا يحيى (عليه السلام) أن ذلك جاء في سياق تعداد نعم الله تعالى على سيدنا عيسى وإخبار من الله ﷻ بأنه قد منح سيدنا يحيى (سلاما) كريما في مواطن ثلاثة: يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه حيا في الآخرة.

أما (السلام) في قصة عيسى (عليه السلام) جاء معرفة: لأن لفظ

(السلام) هو كلام من سيدنا عيسى حيث دعا ربه أن يمنحه السلام في ثلاثة مواطن: يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه حيا في الآخرة.

فبِما أنَّ سَيدنا عِيسى هو الذّي دَعا، فمن المؤكد أنه سيُلح في الدعاء كما هي السُنة فيطلب المعالي. فلذلك عرّف (السلام) دلالة على أنه يريد السلام الكثير العام الشامل. الغزير. وهنا إشارة إلى أن السلام الذي حصل عليه سيدنا عيسى كان أخص من (السلام) الذي حصل عليه سيدنا يحيى، وأن سيدنا عيسى أفضل درجة في النبوة من سيدنا يحيى فهو من أولي العزم.

٩ ـ ضَعْفٌ و قُوَّةٌ:

جاءت كلمة ضعف نكرة مكررة ثلاث مرات في آية واحدة في سورة الروم وجاءت كلمة قوة نكرة مكررة مرتين أيضاً بنفس الآية، يقول تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴾ (سورة الروم: ٥٤).

وهنا يجب التذكير بالقاعدةِ البيانيّة التي تفيد بأن النكرة إذا تكررت فإنها في كل مرة تفيد معنى جديداً. ولفظة (ضعف) نكرة تكرارها في نفس الموضع يفيد أن الضعف الأول غير الثاني وغير الثالث. فالمراد بالضعف الأول هو النطفة (ضعيفة فهي ماء مهين)، والمقصود بالضعف الثاني الطفولة ؛ لأنه بحاجة إلى رعاية أمه في مرحلة الرِّضَاع وعناية خَاصة حتى يجتاز مرحلة المُراهقة ويصل البُلوغ، أما الضَّعف الثالث فيراد به الشيخوخة

؛ لأنه يعود في مرحلة الشيخوخة ضعيفا عاجزا؛ يعاني المرء فيها ضَعف الفِكر، و ضَعيف الحرَكةِ وقلة وقُصُور السَّعي والنشاط.

أما كلمة (قوة) وردت نكرة وكررت مرتين، والكَلمَة جَاءت مَرتين بدلالتين أيضاً ؛ القوة الأولى: قوة فترة الصبا (الصبي قوي مندفع كثير الحركة أما القوة الثانية: قوة الشباب، قوة الجسم والمشاعر والأحاسيس والهمة والعزيمة والانطلاق في الفكر والأحلام والطموح.

١٠ ـ الكافر والزارع:

من الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم لفظة الكفار في قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (سورة الروم:٥٤). ولكن خرجت اللفظة عن دلالتها المعتادة وهي الخروج من الملة والعقيدة. فالمراد بالكفار هنا الزراع، وهذا ما أشار إليه ابن قتيبه في كتابه " تأويل مشكل القرآن " حيث قال: " إنما يريد بالكفار هنا: الزراع، واحدهم كافر. وإنما سمي كافراً لأنه إذا ألقى البذر في الأرض كفره، أي غطاه، وكل شئ غطيته فقد كفرته، ومنه قيل: تكفّر فلان في السلاح إذا تغطى،ومنه قيل الليل: كافر ؛ لأنه يستر بظلمته كل شئ، وهذا مثل قوله تعالى:﴿ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمْ الْكُفَّارَ﴾ (سورة الفتح:٢٩).

١١ ـ الظن واليقين:

من الألفاظ التي ترد قي القرآن بمعنيين لفظة الظن التي تفيد نعناها الحقيقي والتداولي ألا وهو الشك والتشكيك، ومعنى آخر وهو ضده أي اليقين، وهذا مثل الصبح الذي يقال له: صريم، ولليل أيضا صريم، يقول تعالى: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ (سورة القلم:٢٠)، أي سوداء كالليل، لأن الليل ينصرم عن النهار، والنهار ينصرم عن الليل.

ومن هذا يقال لليقين ظن وللشك ظن ؛ لأن في الظن طرفاً من اليقين، يقول تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة:٢٤٩)، أي يستيقنون، وكذلك قوله: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾ (سورة الحاقة:٢٠)، وقوله تعالى:﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ (سورة الكهف:٥٣). وكل هذا يقع في باب اليقين لا الشك.

١٢ ـ الأبصار:

من الألفاظ القرآنية التي جاءت في كتاب الله بمعنيين مختلفين لفظة (الأبصار) في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (سورة النور:٤٣ . ٤٤) إذ الأبصار الأولى جاءت بمعنى النظر، بينما الثانية جاءت بمعنى العقول.

البَابُ الثَّانِي

مِن مَوْضُوْعَاتِ القرآن الكَرِيْمِ

- مَعَانِيَ الإِحْسَانِ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ.
- الأوابون في القرآن الكريم.
- المناقشة والحوار في القُرْآن الكَرِيْمِ والسَّنّة النبوية.
- العَدْلُ في الإسْلامِ.
- حِكْمَةُ اللهِ في الابْتِلاءِ.

فَضَائِلُ شَهْر رَمَضَان.

الفَصْلُ الأوَّلُ

مَعَانِيَ الإِحْسَانِ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ

أمَر الله ﷻ عباده بالإحسان وشدد على أهميته وضرورته للفرد والجماعة على السواء بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة النحل: ٩٠). ويخبرنا الله تعالى في هذه الآية الكريمة بالأمر بالعدل ةهو القسط، ويندب إلى الإحسان كقوله تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ ، وقال ابن عباس: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وقال سفيان بن عيينة: العدل في هذا الموضع هو استواء السريرة والعلانية من كل عامل لله عملاً، والإحسان أن تكون سريرته أحسن من علانيته.

وفي الحديث النبوي: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء". والإحسَان قيمة دينية بالغة الأهمية في حياتنا، لأن تحري العبد المؤمن الإحسان في عقيدته وفي عباداته اليومية كالصلاة والصدقة وصيام التطوع،وعباداته الموسمية كصوم رمضان والزكاة والحج إلى بيت الله الحرام وأيضاً في أخلاقه ومعاملاته، كفيل بإذن الله أن ينال العبد رضا ربه وإحسانه أيضاً، يقول الله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.(سورة الرحمن: ٦٠).

والقرآن الكريم دستور المسلمين في شتى بقاع الأرض يولي موضوع الإحسان اهتماماً نوعياً خاصاً، هذا الاهتمام جعلنا أن نبحث برؤية واعتناء في معنى الإحسان الذي نجم عن تعدد في المعنى بتعدد الاستخدام القرآني، مما يدفعنا أن نتدبر ونتأمل معنى الإحسان في القرآن الكريم.

والذي يدفعنا بجدية أن نتعرف معنى الإحسان في القرآن الكريم ما جاء في حديث رسول الله ﷺ من معنى الإحسان، روى أبو عامر الأشعري ، عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: " بينما نحن جلوس عند النبى ﷺ إذا طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لايرى عليه أثر السفر ولم يعرفه منا أحد حتى جلس إلى النبى ﷺ وقال: يا مُحَمَّد أخبرنى عن الاسلام:قال : " أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحَمَّداً رسول الله،وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا ".قال :صدقت.فعجبنا له يسأله ويصدقه.قال: فأخبرنى عن الإيمان: قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرنى عن الإحسان: قال الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فأنه يراك "..

والإحسان كما نفهم من الحديث أنه لُب الإيمان، وروحه وكماله، وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل مثل منزلة العلم، والتذكر، والتبتل، والخشوع، والإشفاق، والتهذيب وغيرها من المنازل الأخلاقية، فجميعها كما يؤكد الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه (مدارج السالكين) منطوية فيها، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿ هَلْ جَزَاء الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾.، ثم قال: " هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال يقول:

هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة؟ ". أما الحديث، فإشارة إلى كمال الحضور مع الله عز وجل، ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبته، ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له.

ويذكر الشيخ مُحَمَّد الغزالي في كتابه " الجانب العاطفي من الإسلام " أن عند صدق الإيمان وتمام الإسلام يجئ الإحسان نتيجة لازمة لهما، يقول تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف: ٣٠)، فالإيمان حسن معرفة لله وثقة نامية فيه، وأنَّ الإسْلام استجابةٌ مطلقةٌ لتعاليمه، وتحر دقيق لرضَاه، فإذا تجمعت هذه العناصر، وجرت فيها مشاعر اليقين، واينَعت فيها صَوالح الأعمال، فإن المرء يكون لا محالة محسناً.

وقبل الولوج في تعرف معاني الإحسان في القرآن الكريم نشير على عجلٍ إلى معنى كلمة الإحسان ، فكلمة (حسن) بتصريفاتها وردت في القرآن الكريم سبعاً وثلاثين مرة، معظمها جاءت تحمل معاني خير الجزاء على فعل الإحسان الذي يعني المعروف أو أي سلوك يرضاه العرف . أما المعجم الوجيز فيشير إلى الكلمة بإنها الشئ الذي أجيد صنعه، و (أَحْسَنَ) أي فَعَلَ ما هو حسن، ومنه قوله تعالى ، و (حاسنه) أي عامله بالحسنى.

ويشير الدكتور تمام حسان إلى أن لفظة الإحسان من الألفاظ التي تتعدد معانيها حالب إفرادها، فلا يتعين أحد هذه المعاني المتعددة والمحتملة إلا عندما ترد كلمة الإحسان ومشتقاتها في سياق النص. أضف إلى ذلك أنه حين تتعدد المعاني للفظ الواحد تحيط به هالة من الظلال والأطياف لا يدرى معها إلا مع إمعان النظر أي هي المعاني حقيقي وأيها مجازي.

والمتدبر في آيات الإحسان التي جاءت ذكرها في القرآن الكريم يدرك أن ألفاظ الإحسان بطريقة استعمالها ووجه تركيبها صارت وكأنها فوق اللغة، وهذا من وجوه إعجاز القرآن الكريم نفسه وبلاغته وبيانه، و يدعم هذا المغزى البلاغي الإعجازي ما ذكره مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) بقوله: " فإن أحداً من البلغاء لا تمتنع عليه فصح هذه العربية متى أرادها، وهي بعد في الدواوين والكتب، ولكن لا تقع له مثل ألفاظ القرآن في كلامه، وإن اتفقت له نفس هذه الألفاظ بحروفها ومعانيها، لأنها في القرآن تظهر في تركيب ممتنع، ولهذا ترتفع إلى أنواع أسمى من الدلالة اللغوية أو البيانية التي هي طبيعية فيها، فتخرج من لغة الاستعمال إلى لغة الفهم، وتكون بتركيبها المعجز طبقة عقلية في اللغة".

ومن هذه الألفاظ التي تتجاوز الحدود اللغوية والبيانية إلى حدود الفهم والإفهام لفظ الإحسان في القرآن الكريم، والذي خرج عن دلالته التقليدية إلى معان ودلالات متباينة ذات أفق أعلى وأسمى من دلالته اللفظية المعجمية الضيقة. ولنا أن نؤكد قبل سرد المعاني المختلفة لكلمة الإحسان في القرآن الكريم، أن نشير إلى أن للفظ القرآني معنىً وظيفياً بخلاف المعنى المعجمي الضيق.

الإحسان في القرآن الكريم:

جاءت كلمة الإحسان في القرآن الكريم لتخرج عن دلالة الكلمة إلى معان جديدة، فمن معانيها الإيمان مثل قوله تعالى:﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(سورة المائدة:٨٥).أي أنهم أحسنوا بإعلان إيمانهم فأثابهم الله تعالى، وكذلك قوله تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة الصافات: ٧٩ . ٨١).

وخرجت لفظة الإحسان عن معناها التقليدي إلى معان أخرى في القرآن الكريم مثل الصبر، يقول الله تعالى:﴿ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة هود:١١٥)، وقوله تعالى في سورة العنكبوت:: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾(سورة العنكبوت / ٦٩)، وهذه المعية هي معية خاصة ؛ تتضمن حفظهم ونصرهم، وتأييدهم، ولعل هذه المرتبة هي الثالثة من مراتب الصبر والتي تعني الصبر مع الله، وهو دوران العبد مع مراد الله الديني منه، ومع أحكامه الدينية، صابراً نفسه معها، سائراً بسيرها، مقيماً بإقامتها، وهو صبر الصادقين.

ومن معاني الإحسان في القرآن الكريم أيضاً معنى الطاعة، مثل قوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾(سورة الصافات: ١٠٤ . ١٠٥)، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(سورة التوبة: ١٠٠). والدليل على أن الإحسان يعني الطاعة حيناً والمعروف حيناً آخر أن الله (تبارك وتعالى) عندما أوصى الإنسان بوالديه إحساناً قال: ﴿ وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ

بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة العنكبوت: ٨)، وقال جل شأنه: ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة لقمان: ١٥). فنفى الطاعة مع طلب الشرك وأثبت المعروف الذي يجب لهما حتى مع دعوتهما له إلى الشرك فكان الإحسان لهما ثابتاً في الحالتين.

ومن معاني الإحسان في القرآن الكريم معنى الصدق، الذي هو فضيلة تعصم الإنسان من الذلل، وكما قال الصالحون الأقدمون إن الصّدقَ هو الطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبالصدق تميز أهل النِّفاق من أهل الإيمان، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شئ إلا قطعه، ولا واجه باطلاً إلا أرداه وصرعه. والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان وأحدهما محارب للآخر، ولقد أخبرنا الله (سبحانه وتعالى) أنه في يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه، قال تعالى:﴿ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (سورة المائدة: ١١٩).

ومن الآيات التي جاء فيها الإحسان بمعنى الصدق قوله تعالى:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (سورة النساء:١٢٥)، وقوله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥٠).

ومن أبرز معاني الإحسان في القرآن الكريم العمل الصالح، والآيات الدالة على هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة ومتعددة، منها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف: ٣٠)، وقوله:﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة المائدة:٩٣).

وقد يأتي الإحسان في القرآن الكريم بمعنى السعادة، وماهية السعادة لذة في القلب بإدراك المحبوب، ونيل المشتهى، فيتولد من إدراكه حالة تسمى السعادة والسرور، يقول الله تعالى:﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (سورة يونس: ٢٦)،ويخبر الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح له الحسنى في الدار الآخرة، أما قوله تعالى: ﴿وَزِيَادَةٌ ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه، النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعلمهم بل بفضله ورحمته.

ويأتي الإحسان أيضاً بمعنى التفضيل، كقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَتَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ (سورة التوبه: ٥٢)، وقوله عز وجل: ﴿ مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النحل:٩٦) وهو قسم من الله تعالى

مؤكد باللام أنه يجازي الصابرين بأحسن أعمالهم أي ويتجاوز عن سيئها.

ونؤكد في خاتمة القول إلى ما أشار إليه الشيخ مُحَمَّد الغزالي في تسعينيات القرن الماضي، وهو أننا هذه الأيام في أمس الحاجة إلى إحياء قيم ومعاني الإحسان، لما يصدر من بعض المسلمين من إساءة إلى دينهم وأنفسهم بالغة الشدة، ولقد اتسع نطاق هذه الإساءة ، فإذا ما أحسنت الأمة الإسلامية العمل بحقائق دينها ولا أحسنت العمل بشئون دنياها فلم يكن بد من مواجهة عقبى الهوان والتراجع، والقرآن الكريم الذي يضمن علاج الأمة الإسلامية من أمراضها تضمنت آياته مقاصد الإحسان بدرجة من الشمول الذي يمكن من خلال اتباعه التمكين في الأرض، وملئها باليمن والبركة.

ولابد لنا أن ندرك حقيقة تجعلنا نتلمس الإحسان في كل أعمالنا ومقاصدنا، فالإحسان في صورته العليا صفة رب العالمين، لأن الإساءة تنتج عن الجهل والعجز والقصور وما إلى ذلك من أوصاف مستحيلة أن يتصف الله بها ، يقول تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾(سورة النمل:٨٨).

الفصل الثاني

الأَوَّابُوْنَ فِي القُرْآنِ الكَرِيْمِ

يقول الله (تبارك وتعالى) في محكم التنزيل: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (سورة ص: ١٧)، وفي موضع آخر بذات السورة يقول تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (سورة ص:٣٠). ويذكر الله (سبحانه وتعالى) عن إبراهيم (عليه السلام) بأنه أواه حليم بقوله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (سورة التوبة /١١٤). فمن هم الأوابون؟. يقول تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)﴾ (سورة ق:٣٢ ـ ٣٣).

الأواب في المعنى الاصطلاحي يعني العائد التائب الى الله والمطيع لربه على الاستدامة دون انقطاع، وهذا ما يفسره قوله تعالى عن نبيه (عليه السلام) سليمان:﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾، ولقد ذكر ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أن أواباً تعني المطيع، وفيه ثناء على سليمان (عليه السلام) بأنه كثير الطاعة والعبادة والإنابة إلى الله (عز وجل) ، أما الإمام أبو جعفر بن جرير الطبري فيرى كلمة أواب تعني أنه ـ سليمان ـ رجَّاع إلى طاعة الله تواب إليه مما يكره منه، وقيل إنه عُني به أنه كثير الذكر لله والصلاة .

والأواب في المعنى اللغوي لفظة من آب بمعنى رجع، يقال: آب الرجل إلى أهله إذا رجع، والأواب أي الراجع عن الذنوب، وهو ما فسره يونس من قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ يقول: إن داوود رجاع مما يكرهه الله إلى ما يرضيه، تواب، والسدي وغيره يقول إن التواب هو المسبّحُ، وهو ما يشير إليه قول الله تعالى: ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾، قال ابن جرير الطبري: حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: أي كل له مطيع، وقال آخرون: معنى ذلك: كل ذلك لله مسبح .

ولقد وردت كلمة أوّاب واشتقاقاتها أكثر من مرة وموضع في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾، قال قتادة للمطيعين أهل الصلاة، وعن ابن عباس المسبحين وفي رواية عنه المطيعين المحسنين، وقال بعضهم هم الذين يصلون بين العشاءين، وقال آخرون هم الذين يصلون الضحى. وقال شعبة عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب في قوله:﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ قال الذين يصيبون الذنب ثم يتوبون ويصيبون الذنب ثم يتوبون.

وقال عطاء بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد أن الأوابون هم الراجعون إلى الخير، وقد قال مجاهد عن عبيد بن عمير في الآية هو الذي إذا ذكر ذنوبه في الخلاء فيستغفر الله منها، ووافقه مجاهد في ذلك . وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا رجع من سفر قال: " آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون ".

وهناك قول في تفسير هذه الآية الكريمة التي أشارت إلى الأوابين وهو

ما أورده أبو جعفر بن جرير الطبري في تفسيره المعنون بجامع البيان عن تأويل آي القرآن، حيث أشار الطبري إلى أن الأوابين هم التائبون بعد الهفوة فإن الله غفور لهم، وقال حبيب بن أبي ثابت: هو الرجل تكون منه البادرة إلى أبويه وفي نيته وقلبه أنه لا يؤاخذ به .

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال الأواب هو التائب من الذنب، الراجع من معصية الله إلى طاعته، ومما يكرهه إلى ما يرضاه، لأن الأواب إنما هو فعَّال، من قول القائل: آب فلان من سفره إلى منزله، أو من حال إلى حال، كما قال عبيد بن الأبرص:

وكـــل ذي غيبـــة يئـــوب وغائـــب المـــوت لا يئـــوب

ولقد ذكرت لفظة أواب أيضاً في موضع آخر من القرآن الكريم تحديداً في سورة (ق)، يقول الله تعالى:﴿ وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ (سورة ق:٣١ ـ ٣٢). قال قتادة في تأويل الآية الكريمة: هذا الذي توعدون أيها المتقون، أن تدخلوها وتسكنوها، وقوله: ﴿ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ يعني: لكل راجع من معصية الله إلى طاعته، تائب من ذنوبه، وقد اختلف أهل التأويل في معنى ذلك كما يذكر الإمام الطبري في تفسيره، فقال بعضهم هو المسبح، وقال بعضهم هو التائب.

ويقول ابن جرير الطبري: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا مهران، عن أبي سنان، عن أبي إسحاق، عن التميمي،قال: سألت ابن عباس، عن الأواب الحفيظ، قال: حُفظ ذنوبه حتى رجع عنها ، وقال آخرون: معناه: أنه حفيظ على فرائض الله وما ائتمنه عليه. وقال قتادة: حفيظ لما استودعه الله من حقه ونعمته.

ويذيل الإمام الطبري تعليقه بأن أولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله تعالى ذكره وصف هذا التائب الأواب بأنه حفيظ، ولم يحصر به على حفظ نوع من أنواع الطاعات دون نوع، فالواجب أن يعم كما عم جل ثناؤه، فيقال: هو حفيظ لكل ما قربه إلى ربه من الفرائض والطاعات والذنوب التي سلفت منه للتوبة منها والاستغفار.

ويذكر الإمام ابن قيم الجوزية أن التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك، ولا يزال فيه إلى الممات، فالتوبة هي بداية العبد ونهايته، وحاجته إليها في البداية والنهاية ضرورية، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة النور: ٣١).

والتأويب مرادف للتوبة، كما يعني التسبيح وهو ما أشار إليه الدكتور عبد الصبور مرزوق ، وكلاهما يعني رجوع العبد إلى الله، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين، وذلك لا يحدث إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم، ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده. ويشير الإمام ابن قيم الجوزية إلى لطائف أسرار التوبة في ثلاثة أشياء: أن ينظر الجناية التي قضاها الله عليه فيعرف مراد الله فيها، فإن الله (تبارك وتعالى) إنما خلى العبد والذنب لأجل معنيين ؛ أحدهما أن يعرف عزته في قضائه، وبره في ستره، وحلمه في إمهال راكبه، وكرمه في قبول العذر منه، وفضله في مغفرته. والثاني أن يقيم على عبده حجة عدله، فيعاقبه على ذنبه بحجته .

أما اللطيفة الثانية من أسرار التوبة والرجوع إلى الله تعالى ففي أن يرى التائب قبح ما نهى الله عنه، وحسن ما أمر به، وأنه كان مفسداً حين ركب ما نهاه الله تعالى عنه، واللطيفة الثالثة التي أشار إليها ابن قيم الجوزية من أسرار

التوبة التي يتضح فيها الحسن والقبح تقتضي رؤية الفرق بين محبة الله ورضاه، ومشيئته وإرادته الكونية، وعدم التسوية بينهما، أو اعتقاد تلازمهما.

وفي معرض الحديث عن دلالة كلمة أواب في القرآن الكريم وقرابة معناها للتوبة، حري بنا أن نشير على عجل إلى التوبة النصوح وحقيقتها، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة التحريم /٨)، والنصوح على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة، كالشكور والصبور، وأصل مادة (نصح) خلاص الشئ من الغش والشوائب الغريبة، فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة كما يذكر الإمام ابن قيم الجوزية تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكما الوجوه والنصح ضد الغش.

وقد قال عمر بن الخطاب (ﷺ): " التوبة النصوح أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع "، قال الحسن البصري: " هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى، مجمعاً على أن لا يعود فيه "، وقال الكلبي: " أن يستغفر باللسان، ويمسك بالبدن". نسأل الله تعالى الهداية وأن يرزقنا توبة نصوحاً لا معصية بعدها والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

الفَصْلُ الثالث

الحِوَارُ والمُنَاقَشَةِ في القُرْآنِ الكَرِيْمِ والسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ

استطاع القرآن الكريم والسنة النبوية أن يربيا العواطف والعقل الإنساني على التفكير المنطقي السليم، وذلك عن طريق استخدامهما أساليب متنوعة ومختلفة من أهمها المناقشة والحوار. ولأن من أهم أهداف التربية الإسلامية بناء شخصية الفرد بكافة جوانبه ؛ ليتمكن من القيام بوظيفته في الحياة فإن القرآن الكريم والسنة النبوية قد عنيا باستخدام أساليب المناقشة والحوار،وذلك لمراعاة الفروق الفردية،وإثارة ميول واهتمامات الأفراد وضمان إيجابيتهم.

والحوار يتجه في الحقيقة إلى العقل البشري، ذلك الأمر الذي يؤكده القرآن الكريم،والذي يشترط الاعتماد على العقل والتفكير في تكوين الإيمان،حيث إن العقل أساس الدين ومنبع العلم،ومما يدل على ذلك ما ورد من آيات دالة على مكانة العقل واستخدامه في الوصول إلى استنتاج قدرة الله،وآياته الكونية،ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ (٤٣) ﴾(العنكبوت:٤٣)، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة:٧٣).

وجاءت مواضعة المناقشة في معجم اللغة الموسوم بمختار الصحاح أن "نقش الشيء من باب نصر،والمناقشة الاستقصاء في الحساب،وفي الحديث

من نوقش عذّب". وجاء في المعجم الوجيز أن: " نقش الشيء نقشاً: لونه بالألوان وزينه،وناقشه مناقشة ونقاشاً:استقصى في حسابه،ويقال:ناقشه الحساب،والمسألة بحثها".وجاء في أساس البلاغة أن:" انتقش الرجل على فصّه،أمر أن ينقش عليه،وعن عائشة(ﷺ):"من نوقش الحساب عذّب".

وفي اللغات الأجنبية جاءت كلمة مناقشةDiscussion بأنها: مناقشة شيء ما مع شخص ما كتابة أو مشافهة وتتم بشكل فردي أو جماعي،وتتضمن قبول اقتراحات وعرض خطط في المسألة.

وقد تعدد تعريفات ومواضعات المناقشة لدى علماء اللغة وعلم النفس اللغوي، ومحلها تدور حول معان متقاربة،فيعرفها قاموس التربية وعلم النفس بأنها:" عملية اختيار موضوع أو مسألة وتبادل الرأي حولها بغية التوصل إلى قرار أو نتيجة ما بشأنها". ويشار إلى المفهوم بأنه" صيغة من صيغ المباحثة الجماعية ينظم فيها مجموعة أفراد الأعمال اللازمة لحل المشكلة وإصدار القرارات بالتباحث وتبادل الآراء والتعاون على تحديد المشكلة وتحليلها وحلها وتقويم هذا الحل".

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة جاءت في صور استفهامية،أي بدأت بأداة من أدوات الاستفهام، فضلاً عن آيات أخرى بدأت بكلمات مثل:يسألونك،سألك،سألها،/يسألك،وفي هذا دلالة على استخدام المناقشة،وتنوع أسئلتها عن طريق اختلاف الصياغة،ومن خلال الأسئلة القرآنية لابد للعقل من الحركة الدائبة المستمرة،وأن الدين يحترم العقل عن طريق السؤال،والإسلام بدأ من خلال الحوار والمناقشة وطرح الأسئلة،يقول تعال: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ قُلْ الأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (الأنفال:١)، وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) ﴾ (البقرة:١٨٩) .

وقوله تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنْ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمْ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤) ﴾ (المائدة:٤).

وقد تعددت استخدامات الأسئلة في القرآن الكريم،ولم تقتصر على حد الإجابة عنها،بل تعددت إلى أغراض أخرى منها التوبيخ والسخرية،وإلزام الحجة،والتأكيد على قدرة الله،والتحدي لإثارة العقول الخامدة،والتهديد والحسرة.. يقول تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَاماً فَظَلَلْتُمْ تَتَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمْ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنْتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنْ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمْ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنْتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ (٧٣) ﴾ (الواقعة،٥٨. ٧٣).

ولقد أكد الله ـ سبحانه وتعالى ـ ضرورة أن يتحلى المناقش بنزعة الجدل والمناقشة بصورة طيبة تتسم بالحكمة والموعظة الحسنة، يقول تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾ (النحل:١٢٥). ولقد اتسم الحوار والمناقشة بتوافر الاتساق والتوافق المنطقي والتناغم والانسجام،ذلك إذا أراد الفرد أن يكسب الآخرين مجموعة من الأخلاقيات والفضائل والسلوكيات،وهذا لايتحقق بالقوة والعنف، يقول تعالى: ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) ﴾(العنكبوت،٤٦).

والمناقشة في القرآن الكريم استهدفت في المقام الأول الوصول إلى الحق واليقين؛وذلك لأن الجدل والنقاش لا يكونان إلا في سبيل الحق والبعد عن الباطل،يقول تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) ﴾ (غافر:٥) ،ولذلك حرص الله عز وجل أن يندد بمن يجادل ويناقش وهو لا يعتمد على حجة أو برهان أو دليل، يقول تعالى: ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾(لقمان:٢٠)، ويقول تعالى: ﴿ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴾(الحج:٣).

وقد تعددت صور وأشكال المناقشة والحوار في القرآن الكريم ؛ لبيان الحقيقة وإزالة الأوهام والخرافات من عقول الناس،ومحاربة التقليد الأعمى

للآباء والأجداد،ولاختلاف موقف وهدف المناقشة،وطبيعة المناقشة،فمنها ما كان الغرض منه التذكرة، مثل قوله تعالى: ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾(البقرة:٢١١)، ومنها ما كان الغرض منه التنبيه والإيضاح؛ بهدف الوصول إلى اليقين مثل الحوار الذي كان بين نوح (عليه السلام) وقومه،ودعوته لعبادة الله وحده.

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٢٤) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢٥) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٢٦) فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ (٢٧) قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨) وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (٢٩) وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنصُرُنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (٣٠) وَلا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمْ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنْ الظَّالِمِينَ (٣١) قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنتَ مِنْ الصَّادِقِينَ (٣٢) قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾(هود،٢٥.٣٣).

ومنها ما جاء في صورة قصصية من حيث عناصرها؛ كالشخوص،

والمكان والحدث، وهي عادة ما تتضمن قيماً أخلاقية وفضائل مربية،مثل قوله تعالى في صورة الكهف: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً (٣٨) وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تُرَنِي أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنْ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِراً ﴾(الكهف،٣٢.٤٣).

ومن صور المناقشة في القرآن الكريم حوار الفرد ونفسه،وهو حوار يشير عادة إلى التفكير والتدبر والتعقل فيما يحيط بالإنسان من ظواهر كونية بهدف الوصول إلى اليقين،ومن أمثلة ذلك حوار النبي إبراهيم(عليه السلام) لنفسه،يقول تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنْ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ

هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنْ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام،٧٥.٧٩).

وإذا انتقلنا إلى السنة النبوية نجد رسول الله حريصاً على تعليم الصحابة والمسلمين بطريقة المناقشة والحوار،والأحاديث النبوية تؤكد ذلك،فعن عبد الله بن مسعود قال: سألت النبي (ﷺ): "أي العمل أحب إلى الله؟،قال: الصلاة على وقتها،قال: ثم أي؟قال: ثم بر الوالدين،قال:ثم أي؟ قال:الجهاد في سبيل الله. قال حدثني بهن،ولو استزدته لزادني". (أخرجه البخاري).

والرسول الكريمﷺ قد استخدم السؤال قبل إلقاء الحديث؛بغرض تهيئة الأذهان إلى ما سيلقى عليها، ولقد تعددت الأحاديث التي بدأت بأدوات الاستفهام مثل: ألا أحدثكم،ألا تسمعون،أترى بكم سبقك أصحابك؟هل شعرت أن الله؟ألا أدلكم؟.وقد اتبع الرسول ﷺ المناقشة والحوار كأسلوب تربوي قوي الأثر وأكثرها نفعاً،فاعتمد على الخبرة المباشرة في أغلب مواقف التعليم،كما أنه أحسن استغلال حاجات المسلمين للاستفهام والسؤال عن أمور الدين.

والأمثلة على استخدام الأسئلة والحوار لتعليم وتوجيه وإرشاد المسلمين في الأحاديث النبوية الشريفة، وسنكتفي في هذا المجال بالاستشهاد بحديث أبي هريرة، فعن أبي هريرة(ﷺ) قال: قال رسول الله ﷺ: أتدرون من المفلس؟قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع.قال:

المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة،ويأتي وقد شتم هذا،وقذف هذا،وأكل مال هذا،وسفك دم هذا،وضرب هذا،فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته،فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم ثم يطرح في النار". (رواه البخاري ومسلم).وكان لاستخدام الرسول ﷺ الحوار والمناقشة عدة أغراض،منها تربية العواطف،وحث المسلمين على البدء بالسؤال من أجل طلب المعرفة،وإثارة انتباههم وأذهانهم،ودعوتهم إلى التفكر والتدبر.

وإذا تدبرنا صور الحوار والمناقشة في القرآن الكريم والسنة النبوية لاستطعنا استقراء الأيديولوجية الإسلامية لهما، فالحوار والمناقشة بطول القرآن الكريم وعرض السنة النبوية تتضمنا التفاعل والمشاركة، ويقوم فيها المناقش بدور رئيس في منظومة التحاور مع الآخر / الآخرين،وهذا الدور يتوقف عليه نجاح هذه المنظومة أو فشلها في تحقيق الهدف المرجو من تلك المناقشة.

وتظهر ملامح هذه الأيديولوجية أيضاً في انتقال المعرفة من شخص لآخر، حتى تصبح المعرفة(الخبرة) مشاعاً بينهما. ويؤدي هذا التواصل إلى تفاهم مشترك بين هذين الشخصين أو أكثر. وهذا التواصل والتفاعل بين أطراف المناقشة يحققان تقدماً في نقل المعلومات والأفكار والمفاهيم،والذي يساعد بالضرورة على فهم حقيقة إيمانية أو سنة كونية أو تحقيق الاستسلام للعقيدة الربانية الصحيحة.

الفصل الرابع

العَدْلُ في الإسْلامِ

الإسلام هو دين الفطرة الإنسانية، والمنطق السليم، وهو عقيدة خالدة بمبادئها السامية والإنسانية، وهو دين مثالي في جوانبه المتعددة ؛ الروحية والأخلاقية، وفي آدابه ومعاملاته وأحكامه، وهو دين يكرس نفسه لتكوين شخصية إسلامية متكاملة. ولعل انتشار الإسلام بسرعة البرق في شتى بقاع اليابس كان نتيجة لما يتضمنه من مبادئ مثالية وقيم تتسم بالشمولية والتكامل، لقد انتشر الإسلام لما تمتع به من يسر وتسامح، وإيثار، ولما كفله للمسلم من عدالة ومساواة ورحمة مطلقة.

ولقد انتشر الإسلام الحنيف بمبادئه السامية لا بقوة السيف كما يزعم أعداء الإسلام، لقد انتشر ولا يزال ينتشر في كل أرجاء الأرض بآرائه المنطقية التي تتفق مع العقل، وصلاحية هذه الآراء والمبادئ لكل زمان ومكان، وملاءمتها لطبيعة النفس البشرية.

ويرجع أيضاً سبب هذا الإنشار السريع والجميل للإسلام في العالم كله لما اتصف به رسولنا الكريم (ﷺ) من خلق قويم، ومن إيمان شديد بما يدعو إليه، واجتهاده المستدام في نشر دعوة الحق دونما كلل أو تعب، وبما تمتع به الرسول ﷺ من ثبات عظيم وصبر لا نهاية له على ما كان يلاقيه من أذى المشركين.

ولقد منح الإسلام الإنسان حقوقاً منذ أربعة عشر قرنا قبل أن تنادي

المنظمات والهيئات الدولية اليوم بها، فلقد منحه حق حرية العقيدة، وحق التعليم والتعلم، وحق الحياة الكريمة، وحق الأخوة والمساواة، وكما منحه هذه الحقوق وأكثر ألزمه بالعدل والإحسان والصدق والأمانة وحمل المسئولية الاجتماعية، ونهاه عن الظلم والاستبداد والكذب وخيانة الأمانة.

وقد أقر الإسلام مبدأ العدل بين الناس، وهذا من أسرار عظمته، يقول تعالى: ﴿ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة الحجرات: ٩)، أي اعدلوا، ويقول الله تعالى أيضاً في محكم التنزيل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (سورة المائدة: ٨)، وقال رسول الله ﷺ: " اتقوا الظلم، فإنه ظلمات يوم القيامة". ولقد أمر المسلمون بمراعاة قواعد العدل حتى مع ألد وأفجر أعدائهم، فلم يبح له تجاوزها في معاملتهم، يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (سورة البقرة: ١٩٠). وما على أن الإسلام يريد من العدل مؤداه المطلق بقوله تكليفه الآخذين به أن يقوموا بحقه حتى حيال من يمتد سلطانهم عليه من غير المسلمين، وممن ملكت أيمانهم حتى من الحيوانات العجم أيضاً، وهنا يتجلى من سمو التعاليم والقيم الإسلامية مظهر وملمح راق لا تملك الأمم قاطبة له نظيراً حتى وقتنا الراهن.

وفضيلة العدل من صفات الله تعالى لأنه منزه عن الظلم، يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً) (سورة النساء ـ ٤٠)، وقال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى

الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ (سورة الكهف . ٤٩).

فعدل الإسلام وحده هو الذي يتساوى أمامه الغني والفقير، والذليل والشريف والوضيع، ويتعادل أمام قانون الإسلام المالك والمملوك،ويتجلى في عدل الإسلام المثل الأعلى للعدالة حينما تتساوى حقوق وواجبات المسلم والكافر، والعربي والأعجمي، والأبيض والأسود بل إن الإسلام وحده هو الذي أقر العدل في التعامل مع الحيوانات من باب الرفق بها، قال رسول الله ﷺ: " دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض".

والإسلام نادى بإقامة العدالة المطلقة، والمسلم القويم يعتقد تمام الاعتقاد بأن الله تعالى هو العدل، بل أحكم العادلين، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ﴾ (سورة النساء: ٤٠)، والإسلام أمر المسلمين بإقرار العدل والعدالة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (سورة النساء: ٥٨). وكم أهاب القرآن بنا أن نعدل فيما بيننا، وحتم علينا أن نأخذ بالعدل وقيمه ومبادئه حتى مع أعدائنا، ولعلك تجد في القرآن الكريم ما في العدل من نفع لديننا ولدنيانا.

والعدالة في الإسلام تعد مرادفاً للمساواة، ولعل من أسمى مبادئ تلك المساواة التي قد اشترعها للناس جميعاً، فالكل في الإسلام سواء، لا فرق

بين أبيض أو أسود، ولا غني ولا فقير، بل إن الإسلام أقر قاعدة مفادها أن أفضل الناس أقربهم إلى التقوى، يقول تعالى:﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ (سورة النساء:١٢٣، ١٢٤)، وقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

ويؤكد الرسول ﷺ هذه المساواة المطلقة بين الناس جميعاً في قوله: "الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى". والرسول ﷺ كان أعدل الناس وأشجعهم في إقامة العدالة وتحقيقها، ولقد اعترف بلك أعداؤه قبل أصحابه وأتباعه، وكيف لا وكان لقبه قبل البعثة الصادق الأمين، وعنه قال الربيع بن خيثم: "كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الإسلام". وعن الحسن: كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحداً بقرف (أي بذنب) أحد، ولا يصدق أحداً على أحد، أي لا يسمع وشاية الواشين".

وقد أمر الله ـ تعالى ـ رسوله ﷺ أن يلتزم العدل في كل أقواله وأعماله، يقول تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (سورة الشورى: ١٥)، بل إن الله تعالى قد أمر رسوله بالتزام العدل في الأحكام حتى مع غير المسلمين، فقد قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ

تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (سورة المائدة: ٤٢).

وكما أمر الله تعالى رسوله الحبيب مُحَمَّداًﷺ، بالعدل أمر الناس جميعاً بذلك، لأن كل خطاب للرسول ﷺ هو خطاب لأمته إلا في الخصوصيات المروطة بصفة النبوة، فلقد أمرنا الله ـ تبارك وتعالى ـ بالعدل في القول،يقول تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة الأنعام: ١٥٢)، وأمرنا بالعدل في كتابة الديون بقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ (سورة البقرة:٢٨٢).

وأمرنا الله ـ عز وجل ـ أيضا بالتزام العدل عند الإصلاح بين الناس، يقول تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (سورة الحجرات: ٩).

والقرآن الكريم حينما يحثنا ويأمرنا بالتزام العدل واتباعه في القول والفعل والسلوك وكافة مظاهر الحياة، فهو بدوره أيضاً يأمرنا باجتناب الظلم الذي هو أحط الرذائل، والظلم كما يقول الراغب الأصفهاني: " وضع الشئ في غير موضعه المختص به، إما بزيادة أو نقصان، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم يقال في مجاوزة الحق ويقال فيما يكثر وفيما

يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير". والمتدبر في آي الذكر الحكيم يدرك تحريم الظلم وعاقبته الشديدة، يقول تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنعام ـ ٤٥)، ويقول تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً ﴾ (سورة الكهف ـ ٥٩).

ولقد حرص النبي ﷺ على الترغيب في العدل والترهيب من الظلم، ولقد أمر أتباعه بتحري العدل ونهاهم عن الظلم، ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه، عن جابر (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم" (صحيح مسلم).

وعن أبي أمامه (رضي الله عنه) أن رسول الله ﷺ قال: " من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة" (رواه مسلم).ونختتم حديثنا عن العدل في الإسلام بوصية الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) للأشتر النخعي الذي ولاه على مصر بقوله: " أنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى على رعيتك، فإنك إن لم تفعل تكن ظالماً، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه، ومن خاصمه الله أبطل حجته، وليس شئ أدعى إلى تغيير النعمة وتعجيل النقمة من الظلم فإن الله تعالى يسمع دعوة المظلومين، وهو للظالمين بالمرصاد".

الفصل الخامس

حِكْمَةُ اللّهِ فِي الاِبْتِلاءِ

إن لله حكمة في الابتلاء، وهي أن يقع الابتلاء على خاصته المؤمنين، يقول الله تعالى:﴿ الم (١) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)﴾ (سورة العنكبوت: ١ ـ ٣). وإذا طالعنا السيرة النبوية في سياقها التاريخي استطعنا أن نستنبط الحكمة من ابتلاء الله لعباده المؤمنين بدءاً برسول الله ﷺ وانتهاء بأصغر الصحابة سناً.

فالحكمة الأولى من الابتلاء هي تزكية الفرد، فهناك اختلاف واضح وحاسم في جيل تربى على تقديم نفسه فداءً للإسلام، وجيل كجيلنا هذا، في ظل نداءات العولمة وطغيان المادية، وشيوع تيارات التغريب، والموجات الصليبية الشرسة الموجهة لشباب المسلمين عامة. فهذا أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) سيد قومه وعشيرته، لقيه سفيه من سفهاء قريش، وهو عامد إلى الكعبة، فحثا على رأسه تراباً، فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة،وابن هشام يذكر أنه العاص بن وائل، فقال أبو بكر: " ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه؟ قال: أنت فعلت هذا بنفسك. قال: وهو يقول: أي ربِّ، ما أحلمك !، قالها ثلاثاً ".

والحكمة الثانية من سنة الله في ابتلاء خاصته الدعاية والإعلان

للدعوة، فإن صبر المؤمنين والصحابة (رضوان الله عليهم) على الابتلاء بعد دعوة صامتة لهذا الدين، لأن يدخل الناس فيه، ولو وهن هؤلاء أو ضعفوا لما استجاب أحد لهذا الدين.

وهذا يذكرنا بالضرورة قصة إسلام أبي ذر الغفاري، التي قصها ابن عباس، فقال: " حتى دخل على النبي ﷺ، فسمع من قومه وأسلم مكانه، فقال له رسول الله ﷺ: " ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري ". فقال: " والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين ظهرانيهم "، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: " أشهد أن لا إله إلا الله، وأن مُحَمَّداً رسول الله". ثم قام فضربوه حتى أضجعوه، فأتى العباس فأكب عليه، فقال: "ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار؟، وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟ "، فأنقذه منهم. ثم عاد من الغد بمثلها فضربوه وثاروا عليه، وأكب العباس عليه كالسابقة.

ومن حكمة الابتلاء تربية الجماعة المسلمة، حيث إن الابتلاء هو الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة المسلمة الصالحة التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عوداً، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون. ومن خلال الابتلاء يعلم الله حقيقة القلوب قبله، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب ما يعلمه الله سبحانه وتعالى من أمرهم، وهو فضل من الله من

جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحداً إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه.

وما أكثر قراءتنا وترديدنا لسورة المدثر، نحفظها، ونسعى لأن يحفظها أولادنا وأهلنا وتلاميذنا، وهذا بالضرورة أمر طيب وجميل ومحبب لأنفسها، لكن الأجمل والأطيب والأمتع حقاً أن نعي ما جاء في أول السورة، يقول تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧)﴾ (سورة المدثر / ١ ـ ٧).

فالأوامر التي جاءت في صدر السورة الكريمة تتسم بالمباشرة، والوضوح، فالأوامر الإلهية تمثلت في القيام بالإنذار، وطهارة الثياب، والتكبير لله، وغاية عدم الاستكثار بالمنة.ونأتي للآية الأخيرة البليغة الجامعة المانعة المنبئة بالمستقبل، وهي ما سيلقاه رسول الله ﷺ من المشركين، وما سيجده على حد وصف المؤرخين للسيرة النبوية من أذى المعاندين من المخالفة والاستهزاء والسخرية إلى الجد والاجتهاد في قتله، وقتل أصحابه، وإبادة كل من التف حوله من المؤمنين.

ولك أن تتصور بأن رب العزة يأمر نبيه وصفيه مُحَمَّداً ﷺ أن يصبر، وهو سبحانه وتعالى الكافي والقادر لرفع الأذى عنه، ولك أن تتخيل قدر الحمل الثقيل الذي أدركه رسول الله ﷺ منذ البداية أنه سيقدم على مهمة ثقيلة حقاً، وجهاد طويل شاق لإعلاء كلمة التوحيد إلى يوم الدين.

ولما صعد رسول الله ﷺ على جبل الصفا، أخذ ينادي: " يا بني عدي،

يا بني فهر، فقال حينما اجتمعوا: " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟ ". قالوا نعم:، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ ". وأضاف رسول الله ﷺ القول، فقال: " يا معشر قريش، أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت مُحَمَّد، أنقذي نفسك من النار، فإني والله لا أملك لكم من الله شيئاً، إلا أن لكم رحماً سأبلها ببلالها " (رواه مسلم ٣٠٣).

وما أن بلغ الرسول ﷺ بما أمر به من السماء حتى انفجرت مكة بالغضب، غضب في كل مكان وبقعة، واختلفوا وتمايزوا في ابتداع أساليب وألوان شتى لمواجهة دعوة مُحَمَّد وإلحاق الأذى به وبأهله.ولعل هذا التباين والاختلاف في صناعة العداء نتيجة الدهشة والاستغراب حينما تلقوا الإنذار، ولم يستطيعوا أن يختاروا أي درب يسيرون فيه.

وأول هذه الأساليب هو السخرية والاستهزاء، والغرض منها توهين قوى المسلمين المعنوية، وخذل رسول الله ﷺ في أصحابه، وليستحضرني حديث رسول الله ﷺ حين سأله سعد بن أبي وقاص، فقال: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: " الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في في دينه رقة ابتلي حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة ".

والجانب المعنوي في هذا الأمر هو أشد وأعنف من جانبه المادي ؛ وما بالكم بهؤلاء السفهاء الذين تضاحكوا وسخروا وطعنوا في أكرم مخلوق

على الأرض، وما أقوى رسول الله ﷺ في الصبر على هذا الإيذاء المعنوي. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة في الصبر على الضراء، وفي البأساء، وحين البأس، ومن حكمة الله (تبارك وتعالى) أن جاء الحديث في القرآن عن الصبر على الحق والاستشهاد في سبيل الله بعد ذكر جانب الأسوة الحسنة، يقول الله تعالى في محكم التنزيل:﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً (٢١) وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً (٢٢) مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ (سورة الأحزاب: ٢١ ـ ٢٣).

وكان السفهاء من قريش يسخرون من النبي ﷺ باتهامه بأنه رجل مسحور، وبأنه شاعر، وبأنه مجنون، وبأنه كاهن يأتيه الشيطان، وأنه ساحر كذاب، ومفترٍ متقول، هذا بالإضافة إلى نظرة النقمة والازدراء التي كانوا ينظرون بها إليه، كما قال الله تعالى:﴿ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١)﴾ (سورة القلم / ٥١).

ويصف الله تعالى في كتابه العزيز كل افتراءات مشركي مكة لرسول الله ﷺ، يقول تعالى:﴿ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤)﴾ (سورة ص: ٤).، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦)﴾ (سورة الحجر: ٦). ولقد قص الله علينا في كتابه هؤلاء السفهاء الذين سخروا من سيد الخلق ﷺ، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنْ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ

يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣)﴾ (سورة المطففين: ٢٩ . ٣٣).

ويقول رب العزة (تبارك وتعالى) واصفاً هؤلاء المستهزئين حينما بثوا دعاياتهم وافتراءاتهم الكاذبة عن رسول الله ﷺ، وحول ذاته وشخصه: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٥)﴾ (سورة الفرقان: ٤ . ٥).

ولأن طبيعة العهد المكي اتسمت بالجدلية المطلقة في أحداثها، ولأن الرسالة المحمدية جاءت لتحرك الراكد والثابت الأسن، فإن أهل مكة . أنفسهم . احتاروا وهم يحاولون تشويه صورة رسول الله ﷺ وإيذاءه بالقول، فنجد مثلاً الوليد بن المغيرة وهو من زعماء قريش يقول عن رسول الله ﷺ قولا نذكر منه: " والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لغدق، وإن فرعه، لجنى، فما أنتم بقائلين شيئاً من هذا إلا عرف أنه باطل ".

والذي لا يدع مجالاً للشك، أن سخرية قريش والطعن في النبي ﷺ قد أثرت في النبي كما قال الله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧)﴾ (سورة الحجر: ٩٧)، لكن الله تعالى لم يتركه، بل قدم له الحل والعلاج القرآني الرباني السريع، يقول تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنْ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩)﴾ (سورة الحجر: ٩٨ . ٩٩). ولعل أبرز الأساليب التي واجه بها مشركو مكة رسول الله ﷺ ومن اتبعه التعذيب والتنكيل، والناظر لهذا الأسلوب يدرك أن من يستخدم

القوة في مواجهة الكلمة والدعوة لهو من أضعف الناس عللا الإطلاق، ودليل دامغ على ضعف الحجة، وقلة الإدراك.

وكلنا يعلم كيف عُذب بلال بن رباح (ﷺ) في سبيل الإسلام، وكيف كان أمية بن خلف يجعل في عنقه حبلاً ويدفعه إلى الصغار يلعبون ويلهون به، ثم يأمر بالصخرة الكبيرة فتوضع على صدره، ثم يقول: " لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى، فيقول: أحدٌ أحدٌ". حتى عثمان بن عفان (ﷺ) لم يسلم من التعذيب والإيذاء، فكان عمه يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته.

ولم تهدأ قريش بعد قريش في ابتداع أساليب لمواجهة دعوة مُحَمَّد ﷺ ولعل بعض كتب السيرة النبوية في سياقيها التاريخي تفغل ذكر سلاح المرأة الذي استخدمه مشركو مكة في حربهم ضد الرسول ﷺ، ولعل تغافل بعض كتاب السيرة لذكر هذا أعطى المستشرقين وأنصارهم فرصة القنص والطعن من رسول الله ﷺ أكرم الخلق وسيد المرسلين، فها هي قريش تعرض على رسول الله ﷺ نساءها، يختار عشراً منهن ؛ أجملهن وأحسنهن يكن زوجات له. وما أصلب رسول الله ﷺ الذي أدعى وافترى عليه المستشرقون ومن والاهم بأن أكرم الخلق راغب في النساء ودليلهم الباطل كثرة أزواجه، بالرغم من أن زيجاته جميعهن لعللٍ وأسباب، فرفض رسول الله ﷺ عرض قريش المُغري يوم قال له عمه أبو طالب: " يا بن أخي، إن قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا، فابق عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ". فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله ومسلمه، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه.

فقال له رسول الله ﷺ: " يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته".

الفصل السادس

فَضَائِلُ شهْرِ رَمَضَان

في صوم رمضان خصيصة رفيعة ليست في غيره من العبادات، وهي أن صومه مقرون بالله تبارك وتعالى، حيث يقول رب العزة: " الصوم لي وأنا أجزي به "، ولهذا الشهر العظيم منزلة كبيرة غالية فهو الشهر الذي أنزل فيه القرآن الكريم دستور المسلمين في شتى بقاع المعمورة، واختص هذا الشهر بلية القدر، وفيه كتب على المسلمين فريضة الصيام، يقول تعالى في محكم التنزيل: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ .

وللصوم معنيان، معنى لغوي يشير إلى الإمساك كما في قول الله تعالى عن مريم عليها السلام: ﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً (٢٦) ﴾، والصيام في الشرع يعني الإمساك عن الطعام والشراب وجميع المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس بشرائط وضوابط خاصة ومضبوطة. أما الصيام من حيث كونه عبادة فهو فرض على أمة الإسلام كما فرض من قبل على أهل الملل السابقة الموحدة بالله تعالى. وأكد الله عز وجل اختصاص شهر رمضان بالصوم لأنه الشهر المبارك العظيم الذي أنعم فيه على عباده المتقين بأفضل وأجل نعمة إلهية معجزة وهي نعمة نزول القرآن

الكريم، يقول تعالى:﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) ﴾.

ومن رفعة هذه العبادة الروحية أن الدعاء فيها لا يرد وإذا كان الدعاء مستحب في كل وقت وحين فإن هناك من الأوقات والأحوال يكون فيه الدعاء أرجى للقبول والله أعلى وأعلم، ومن هذه الأحوال حال المرء وهو صائم، ورسولنا الكريم (ﷺ) يرشدنا إلى ذلك، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهما) أن النبي (ﷺ) قال: " إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد" (رواه ابن ماجه)، وقال ﷺ أيضاً في بيان أهمية ومنزلة الدعاء للصائم: " ثلاثة لا ترد دعوتهم ؛ الصائم حتى يفطر والإمام العادل والمظلوم".

وشهر رمضان له مكانة في الإسلام لا يضاهيها شهر آخر لما له من فضائل على المسلمين فرداً ومجتمعاً، فمن أعظم علامات الرحمة فيه أن الله عز وجل يفتح أبواب الجنة ويغلق أبواب النار ويصفد الشياطين، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: "إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين" (رواه مسلم).وللعلماء آراء في تفسير هذا الحديث جديرة بالذكر؛ فمنهم من قال يحتمل أن يكون المراد أن الشياطين هم مسترقو السمع منهم وأن تصفيدهم يقع في ليالي رمضان لأنهم منعوا في زمن نزول القرآن من استراق السمع فزيدوا التصفيد مبالغة في الحفظ. وقال بعض العلماء إن فائدة فتح أبواب السماء توقيف الملائكة على استحماد فضل الصائمين وأنه من الله بمنزلة عظيمة كريمة.

ولصوم رمضان فضائل وفوائد عديدة حيث إن الصوم في حقيقته كعبادة وفريضة بدنية في المقام الأول إلا أنها تحقق رفعة ورقياً للمسلم حيث ترفعه من حضيض الحيوانية إلى المستوى الذي ارتأه الله تبارك وتعالى له، ويذكر العلامة مُحَمَّد فريد وجدي في كتابه من معالم الإسلام أن هناك حكمة في تدخل الإسلام الحنيف في أمر التغذي، حيث إن الجسم والروح مترابطان في هذه الحياة، والروح جوهر كريم لا تكدره الأعراض، ولكنه مودع في هذا الغلاف المادي، وهو الجثمان، لا يسمح له أن يتصل بالوجود إلا من خلال الحواس التي جعلت فيه، ولا أن يدرك منه ما يدركه إلا بواسطة المادة المخية التي جعلت أداة للإدراك، ولما كان هذا الجثمان مخلوقاً من التراب فهو عرضة لكل ما يعتور الأجساد المادية من الآثار، وأد ما يصيبها منها ما ينصب عليها من ناحية الغذاء، لذلك كانت حاجة الإنسان ماسة إلى تعهد جسده بالمطهرات والمزكيات وليس منها ما هو أفعل فه من الصيام.

ورغم أن الصيام رياضة جسدية إلا أن فوائدها الروحية والانفعالية أجدى وأبقى أثراً ؛ فإذا كان المسلم يمسك عن الطعام والشراب وكافة الشهوات التي بالإفراط فيها تصيب الإنسان بحالات مستدامة من اللذة المؤقتة والقلق والغيرة وربما بعض الاضطرابات البعيدة عن النضج والاستواء، فإن الصيام يحقق للمسلم الاعتدال فلا يكون المرء ضعيف التاثر متبلداً ولا سريع التأثر يثور لأتفه الأسباب التي تؤججها رغباته وشهواته. وهو وسيلة راقية لتهذيب النفس وتحسين الخلق، لأنه يجعل الإنسان في عبادة مستمرة معظم الوقت الذي كون فيه مسيقظاً .كما أن

الصوم يمنع المرء من اللغو في الكلام ومن البذاءة في اللسان وفي هذا كله تربية روحية للمسلم، يقول رسول الله (ﷺ): " الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، إني صائم".

والمتدبر في فريضة الصوم يدرك على الفور فاعليتها في سمو الإنسان ورقيه فوق شهواته كما أن هذه الفريضة تكسبه فضائل كالصبر والنظام وتحمل المشقة والصعاب، بالإضافة تربيته على قوة الإرادة، فالذي يقاوم دوافعه الفطرية إلى الطعام والشراب والملذات والشهوات يصبح قوي الإرادة، يملك نفسه ويسيرها على طريق الشرع.

وما أفجع ما نراه في السنوات الأخيرة بعد أن تحول شهر رمضان إلى احتفالية بعيدة تمام البعد عن الإسلام الحنيف فوجدنا السمر والسهر بغير طاعة أو عبادة وتوسع في المطعم والمشرب ونوم النهار بطوله وغير ذلك من المفجعات التي تضرب صدر الشريعة، وهذا كله عبث وخروج على طاعة الفريضة السمحة التي جعلها الله لعباده طوق نجاة من الشرور والشهوات المهلكة.

ولكن لماذا كان الشكر بالصيام واجباً عن بقية العبادات؟ الإجابة باختزال شديد هو إن الإنسان مكون من روح علوي وجسد سفلي، والجسد له مطالب من جنس عالمه السفلي. والروح لها مطالب من جنس عالمها العلوي، وفي ذلك يقول أستاذي وشيخي الجليل الدكتور زين شحاتة أستاذ التربية الإسلامية وعلومها في كتابه الماتع " على مائدة الصيام في شهر القرآن" إنه عندما يحكم الإنسان جانبه الروحي العلوي في جانبه الأرضي السفلي ويغلب أشواق الروح على نوازع الجسد يصير ملاكاً أو

خيراً من الملاك. يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ (٧) ﴾. (البينة:٧)، فبالصيام تقترب روح المؤمن المسلم من النورانية وتشع فيه الملائكية، ويتغلب جانب النور فيه على جانب الظلمة والشهوة.

وقد أشار إلى ذلك الإمام الشيخ أبو حامد الغزالي الغزالي في كتابه " إحياء علوم الدين" بقوله: " المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدانية والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان، فإنهم منزهون عن الشهوات، والإنسان رتبة فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلي بمجاهدتها فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة".

وشهر رمضان ونحن نستقبله يجب علينا أن نقتنص كل لحظة فيه من الطاعات حيث إنه فرصة عظيمة وموسم للتائبين، يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): " إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، فتحت أبواب الجنان فلم يغلق منها باب واحد الشهر كله، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب الشهر كله وتململت عتاة الجن، ونادى مناد من السماء كل ليلة إلى انفجار الصبح، يا باغي الخير يمم وأبشر، ويا باغي الشر أقصر وأبصر، هل من مستغفر يغفر له؟ هل من تائب يتوب الله عليه؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من سائل يعطى سؤله؟ ".

ومن فضل الله علينا في هذا الشهر العظيم ليلة القدر خير عطاء إلهي

للمسلمين، يقول تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ (٤) سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (٥) ﴾ (القدر: ٥.١). وهذه الليلة فيها سلام من الله تبارك وتعالى وسلام من الملائكة النازلين وهم يسلمون على كل مؤمن ومؤمنة وهي سلام للمؤمنين الموقنين ولعظمة هذه الليلة حث النبي (ﷺ) على قيامها، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (ﷺ) قال: " من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه".

الفصل السابع

الصَّبرُ.. أحْوَالٌ ومَقَامَاتٌ

يعد الصبر من أعظم الفرائض إشارة إلى قول الله تعالى في سورة النحل: (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ)، والصبر إذعان لله وحكمه وقضائه وحكته في تصريف وتدبير المقادير، يقول المولى تبارك وتعالى: (واصبر لحكم ربك) فقلد أمرنا الله ـ عز وجل ـ بالصبر لحكمه. والصبر لا جزاء له سوى الفلاح ونيل المقاصد التي ارتضاها الله لعبده باعتبار أن الصبر شرط رئيس من شرائط الإيمان التي يرفع الله بها درجات العبد في الجنة، يقول تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)، وعلم العبد ويقينه بأن صبره على البلاء والابتلاء وتصاريف القدر هو برزخ يعبره المرء تحقيقاً لغاية كبيرة هي الفوز برضا الله عنه.

والصبر أنواع وصنوف منها الصبر لله في مقام حق اليقين لقول الله تبارك وتعالى: (واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا)وفي هذه الآية الكريمة وجوب للصب لحكم الله تعالى، ومنها أيضاً الصبر بالله على تحمل أعباء الرسالة والمهمة كقوله تعالى: (واصبر وما صبرك إلا بالله)، ومن أبرز وأحكم أنواع الصبر، الصبر في الله، فمن صبر في الله ومعه كان معه وفي معيته ورعايته التي لا تنقضي، يقول تعالى: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم

بالغداة والعشي يريدون وجهه)، ويقول تعالى أحكم الحاكمين: (إن الله مع الصابرين). ويرى أبو الحسن الماوردي أن الصبر على امتثال ما أمر الله به تعالى والانتهاء عما نهى عنه من أرفع درجات ومقامات الصبر ؛ لأن به تخص الطاعة، وبخلوص الطاعة يصح الدين وتؤدى الفروض ويُستحق الثواب.

ومن صبر لله ثبته وقوى عزيمته وسدد خطاه وتفكيره إلى الصواب بغير لغط أو جنوح، ومن الصبر السلبي صبر عن الله وهو صبر أهل الجهل الذين باعدهم الله عن السعادة في الدنيا والآخرة، وهذا الصنف من الصبر هو ابتعاد عن الله ورحمته وغفلة واضحة بحقيقة التوحيد والربوبية، وغفلة عن العبر والدروس التي ينبغي للمرء أن يعيها من أموره وأحواله. ويمثل الصبر عن الله عجلة وتسرعاً من المرء عن حكمة الله وفرجه القريب. والصبر أدب للنفس وترويض لها، ومن حسن التوفيق وأمارات السعدة الصبر على الملمات والمصائب وكوادر النفس والقلب معاً، وفي آثار السلف " من خير خلالك الصبر على اختلالك".

وهناك صبر يلجأ إليه العبد فيما يخشى حدوثه،من رهبة يخشاها العبد، أو يحذر حلولها من نكبة يخشاها، وعلى العبد ألا يتعجل هماً ما لم يأت بعد، فإن أكثر الهموم كاذبة، وأن الأغلب من الخوف مدفوع. وقد روي عن النبي (ﷺ) أنه قال: " بالصبر يتوقع الفرج، ومن يدمن قرع باب يلج". وقال الحسن البصري: " لا تحملن على يومك هم غدك فحسب كل يوم همه ".

والصبر الذي نرجوه هو في حقيقته ثبات وعزيمة وقوة حيث يجاهد المرء نفسه ورغباته وشهواته، وهو قرب من طاعة الله تبارك وتعالى وسنة نبيه (ﷺ)، وتدريب حقيقي شاهد على تحمل القضاء لحكم الله مصاحب

بالرضا والقنوع واليقين برحمة الله.وما أجمل أن يجعل الله عز وجل الصابرين أئمة للمتقين الصالحين القانتين، حيث يقول الله تبارك وتعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون). والجزاء عظيم لمن صبر وارتضى بالقضاء الإلهي، يقول تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب).

ويشير الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ) إلى شمائل الصبر بقوله: " بني الإسلام على أربع دعائم: على اليقين والصبر والجهاد والعدل)، وقال ﷺ: " الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له، ولا إيمان لمن لا رأس له ". وقال أيضاً: " الصبر مطية لا تكبو، والقناعة سيف لا ينبو". والفاروق عمر (ﷺ) يشدد على التمسك بفضيلة الصبر حيث يقول: " نعم العدلان، ونعمت العلاوة للصابرين "، ويعني بالعدلين الصبر والرحمة، وبالعلاوة الهدى. وقال: " لو أن الصبر والشكر بعيران ما باليت أيهما ركبت". ورسولنا الكريم (ﷺ) جعل الصابرين خواص الصادقين، ففي حديث عطاء عن ابن عباس (ﷺ) لما دخل رسول الله (ﷺ) على الأنصار فقال: " مؤمنون أنتم؟ فسكتوا، فقال عمر (ﷺ): نعم، قال: وما علامة إيمانكم؟ قال: نشكر في الرخاء، ونصبر على البلاء، ونرضى بالقضاء، فقال (ﷺ): مؤمنون ورب الكعبة".

والصبر عند أهل التصوف مقامات وأحوال، فصاحب الحياء يلتزم بخصال الإحسان وهو صابر، فيصبر عن معصية الخالق حياء من ربه، والصابر عن المعصية حياءً أكمل من الصابر عنها خوفاً، لأن صاحب الحياء في مراقبة دائمة، أما صاحب الخوف فهو في مقام مجاهدة.

الفصل التاسع

فِي رِحَابِ آيَةٍ مِنْ الذِّكْرِ الحَكِيْمِ

والناس في غفلة من أمرهم نظراً لحالة الهوس التكنولوجي التي يعانون من جذبتها، يتسنى للمرء أن يهرع دوماً نحو كتاب الله الحكيم، القرآن الكريم بوصفه دستوراً أبدياً لا لغط فيه ولا خلل، ولا يمكن للمرء أن يقدر على الحكي عن روعة وجمال ودقة القرآن الكريم مهما بلغ من علم ومعرفة ودراية، لأنه كتاب سماوي جامع ومانع، به أسرار النفس، وحكايا الروح، وما للإنسان من طاقة حتى يقدر على التوصيف أو حتى الرصد، ورغم ذلك من الأهمية في الأيام الآنية أن نلجأ بغير ملل إلى استذكار قول الله تبارك وتعالى، من أجل أمور عدة لا شك فيها، منها أن تدارس القرآن الكريم واجب وفرض عين وأمر إلزامي على كل مسلم مؤمن موحد بالله تعالى، ومنها أن القرآن الكريم هو قول الله رب العزة والإجلال وبه تطمئن القلوب في أوقات كالتي نعيشها مضطربة متسارعة الخطى ومحتدمة بالصراعات والرؤى والتحزبات المتباينة.

ومن الأيات التي يقف عندها المسلم بكثير من التأمل طلباً للفهم والإحاطة، الآية الثالثة عشرة من سورة الشورى، يقول الله تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا

تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ). وجملة التفاسير التي نقدرها ونحترم أصحابها تشير في البداية إلى أن الآية الكريمة ذكرت أول أنبياء الله بعد آدم وهو نوح (عليه السلام) وآخر أنبياء الله ورسلهم خاتمهم جميها نبي الرحمة سيدنا مُحَمَّد (ﷺ) وما بينهما من أولي العزم من الرسل إبراهيم (عليه السلام)، وموسى (عليه السلام) وعيسى بن مريم (عليه السلام)، ثم تفسير الدلالة اللفظية للآية الكريمة، إلا أن مسألة اشتراع الدين من المسائل الدينية بالغة الأهمية في سياقها القرآني. ومعلوم أن الذي أوصى الله به جميع الأنبياء وصية واحدة وهي إقامة الدين الحق وعدم الافتراق والفرقة والتنازع. وجدير بالذكر أن الذي وصي به نوح هو تحليل الحلال وتحريم الحرام.

فالمفسرون حينما يتحدثون عن الدين في مجمله العام فهم بذلك يقصدون أموراً منها الإيمان المطلق بالله عز وجل بغير شرك أو شراكة ضمنية، فهو واحد أحد، ويقصدون به توافق المصالح والمطامح والاشتراك النفعي بين البشر والذي يعود عليهم بالنفع والخير، وهو ما أطلق عليه فقهاؤنا الأماجد بالضرورات الخمس وهي: حفظ النفس، والدين، والعقل، والعِرض، والمال، ويعد الدين في ذلك الجمع صوناً مشتركاً لهذه الضرورات.

أما اشتراع الدين الذي يتكرر في أكثر من آية في القرآن الكريم بصور وصيغ مختلفة لكنها متقاربة في المعنى والدلالة هو أمر إلهي مقصود، ويقصد بها كما يشير عبد الرحمن السالمي الوصول إلى نتيجتين أساسيتين هما: الرؤية الإيمانية الصحيحة إلى أصل الكون والوجود، والنتيجة الأخرى هي ما يترتب على ذلك من تناغم وانتظام بين الفردي والجماعي. والاشتراع

أمر إلهي يأتي بعد التزام العبد وإيمانه المطلق بالله عز وجل، ثم يأمر الله تعالى بالاتحاد والتعاون والمشاركة النافعة المثمرة وعدم التفرق بقوله تعالى: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ)، والواو هنا بمثابة حرف الفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب والله أعلى وأعلم، وهي نتيجة تعقب مقدمة منطقية.

والدين يعني أموراً عدة منها السلطان والورع والقهر والطاعة والعادة والقضاء والجزاء ، وحرص الله عز وجل بأمره في عدم التفرق دليل قاطع على أن في الفرقة هلكة كما أشار المفسرون، والخير في الجماعة والائتلاف والاتحاد لدوام النفع وشيوعه والثقة في رأيها على الدوام، وربما تعد الإشارة إلى ضرورة إقامة الدين وعدم التفرقة رسالة أو توجيهاً سماوياً للتفرقة بين النبوة والرسالة، حيث إن النبي ملتزم بصفة فردية، أما الرسول فهو بإزاء التزامات عامة واجتماعية، وحرص الرسول على توحيد الكلمة والمعتقد يسهل له مهمته في الدعوة ونشر رسالته السماوية لاسيما وأن رسالات الله جميعها تتعلق بالقيم والعادات المشتركة والجمعية العامة وليست الفردية التي تخص فرداً دون آخر. ورغم التأكيد الإلهي على وحدة الدين إلا أن الديانات نفسها تعددت، إلا أن في تعددها اتحاداً ومشاركة وليس اختلافاً في الرؤى والطبيعة، وليس تعدد الديانات منطلقاً للتفرقة والتنازع بل للالتقاء. فالقدر المشترك بين الأديان السماوية جميعها هو عبادة الله وحده لا شريك له، وإن اختلفت الشرائع والمناهج.

ويرى ابن عاشور في تفسيره لهذه الآية الكريمة أي لا تتفرقوا في إقامته بأن ينشط بعضهم لإقامته ويتخاذل البعض، إذ بدون الاتفاق على إقامة الدّين يضطرب أمره. ووجه ذلك أن تأثير النفوس إذا اتفقت يَتوارد على

قصد واحد فيقوَى ذلك التأثير ويسرع في حصول الأثر إذ يصير كل فرد من الأمة مُعِيناً للآخر فيسهل مقصدهم من إقامة دينهم. أما إذا حصل التفرق والاختلاف فذلك مُفضضٍ إلى ضياع أمور الدّين في خلال ذلك الاختلاف، ثم هو لا يلبث أن يُلقِيَ بالأمة إلى العداوة بينها وقد يجرّهم إلى أن يتربص بعضهم ببعض الدوائرَ، ولذلك قال الله تعالى: (ولا تَنَازَعُوا فتفْشَلُوا وتَذهَبَ ريحُكم)، وأما الاختلاف في فروعه بحسب استنباط أهل العلم بالدّين فذلك من التفقّه الوارد فيه قول النبي (ﷺ): « من يُرِدِ الله به خيراً يفقِهْه في الدّين ".

والدين كمايعرفه عبد الله دراز له عدة معان ودلائل منها السلطان، والجزاء، والقضاء والسياسة، والحساب، والطاعة والعادة. والدين في حقيقته هلاقة بين طرفين يعظم أحدهما الآخر ويخضع له، والتهانوي عرف الدين بقوله: " وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل.

ومن عظمة الدين الإسلامي وتفرده الاستثنائي على بقية الأديان السماوية أنه ليست مجموعة من الطقوس والشعائر الدينية التي تنظم العلاقة بين الخالق وعباده فحسب، بل إن الإسلام ضمن خير وصلاح الإنسانية بجملة من القواعد والضوابط التي تنظم علاقة العبد بغيره من العباد. وجملة القيم والمبادئ الدينية التي شرعها الله لنا هي أساس لضبط العلاقات الاجتماعية بين الناس كافة. ونرى في آيات الذكر الحكيم عدداً كبيراً من الإشارات والتنبيهات التي تحض المسلم المؤمن على اكتساب واستخدام القيم والمبادئ الإنسانية التي تضمن له صلاح وخير أحواله في

الدنيا والآخرة بإذن الله تعالى، منها تطبيق العدل، والالتزام بما شرعه الله من أوامر ونواهي، والاعتدال، وتوازن المعاملات، والصبر، والتواضع، وإيثار الخيرات للآخرين، والرحمة.

ويقول الله تبارك وتعالى لنبيه مُحَمَّد (ﷺ) أن المشركين كبر عليهم ما يدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله وحده وإفراده بالألوهية والبراءة مما سواه من الآلهة والأنداد التي لا تفيد ولا تنفع. ولقد أنكر المشركون حقاً وكبر عليهم أن يشهدوا بأن لا إله إلا الله لذا فحق العذاب عليهم واستمرارهم في الغي والضلال. ولذلك نرى الله عز من قال في نهاية الآية الكريمة يقول: (اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) أي أن الله يصطفي من يشاء من عباده وخلقه ويختار لنفسه وولايته من أحب.

الفصل العاشر

اللّهُ الصَّمَدُ

قد يبدو الموضوع قديماً نسبياً، أن نشير إلى معنى كلمة الصمد التي جاء ذكرها في كتاب الله الحكيم في قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ) ، بسورة الإخلاص التي يحفظها كل مسلم ومسلمة، لكن التذكرة جاءت عن طريق طفل صغير يحفظ القرآن استوقفني ليسألني عن معنى الكلمة، فأجبته باختصار واختزال شديدين، وعند عودتي للمنزل ظل سؤال الصبي الصغير يحاصرني بأسئلة مفادها هل ما قلته قد أصاب عين اليقين، لكنه القرآن سيبقى كعادته إلى أن تقوم الساعة، يدفع المرء طوعاً إلى استقراء معانيه ودلالاته، وسبر أغواره التي لا تنضب بجمال التعبير وقوة المعنى، وسحر التأثير.

ورغم أننا نعلم جميعاً فضل سورة الإخلاص التي جاء ذكر الصمد فيها، إلا أنه من باب فرض العين أن نشير على عجل إلى فضلها من خلال حديثين شريفين للنبي الأكرم مُحَمَّد (ﷺ) كما جاءفي صحيح مسلم للحافظ زكي الدين المنذري، فعن أبي الدرداء (رضي الله عنه)، عن النبي (ﷺ) قال: " أيعجز أحدكم أن يقرأ في ليلة ثلث القرآن؟ "، قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟!، قال: " (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) تعدل ثلث القرآن ". (أخرجه مسلم ـ ٨١١، ص ٧٨٩).

وعن عائشة (ﷺ وعن أبيها الصديق)، أن رسول الله (ﷺ) بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ)، فقال: " سلوه، لأي شئ يصنع ذلك؟ ". فسألوه. فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله (ﷺ): " أخبروه أن الله يحبه ". (أخرجه البخاري: ٧٣٧٥، ومسلم: ٨١٣).

والصمد في اللغة يعني القصد، نقول: صَمَدَه يصمِده صمداً، وصمد إليه أي قصده. وقد قال معاذ بن عمرو بن الجموح يوم قتل أبا جهل: " فصمدت له حتى أمكنتني منه غرة "، أي قصدت إليه وله تهيأت وانتظرت غفلته. والصمد أيضاً كلمة تعني السيد المطاع الذي لا ينقضي أمر دونه، والذي يقصد إليه في الحوائج والنوائب والشدائد والحوادث الجلل. والصمد في معاجم العرب تعني أيضاً الذي لا يطعم، ومن دلالاته الدائم، ولقد قال علماؤنا وشيوخنا في التفسير أن الصمد في قوله تعالى بسورة الإخلاص الذي يصمد إليه في الحاجات، وقال آخرون أنه يعني الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزال. أما الإمام علي بن أبي طالب (ﷺ وأرضاه وأكرم الله وجهه) فقال إن الصمد هو السيد الذي انتهى إليه كل أنواع الشرف والسؤدد. أما مقاتل فأشار إلى معنى لفظة الصمد بقوله: إنه الكامل الذي لا عيب فيه.

ولم يرد هذا الاسم إلا في سورة الإخلاص فقط، وقال ابن كثير في تفسيره أنها نزلت لما قال اليهود: نحن نعبد عزير ابن الله، وقالت النصارى: نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس: نحن نعبد الشمس والقمر، وقال

المشركون: نحن نعبد الأوثان، فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله (ﷺ) هذه الآيات المحكمات. ودلالة الاسم تعني أن الله هو المقصود دوماً بالعبادة، والصمد وجه الحق، ومن نعم الله تعالى أنه جعل ذاته مقصد الناس جميعا في الحوائج، وعن الاسم قال أنشد أحد الصالحين شعراً:

ألجـأت ظهـري إلى ركـني ومسـندي، إلى المهـيمن رب النـاس والصـمد..

وقلـت يا منتهـى الآمـال أجمعهـا، لـك الـتحكم في الأدنى وفي البعـد..

الباب الثالث

قَضَايَا إِسْلامِيَّةٌ واجْتِمَاعِيَّةٌ

- الجمود وأسبابه في الخطاب الديني المعاصر
- حَمَلاتُ تَشْوِيْهِ الإسْلامِ في الإعْلامِ الغرْبِي.
- المرأة في الإسلام
- شبكات التواصل الاجتماعي
- ركائز نهضة الأمة الإسلامية
- ضوابط الاجتهاد الفقهي في الإسلام.

الفصل الأول

الجُمُوْدُ وأسْبَابُه في الخِطَابِ الدِّيْني المُعَاصِرِ

يمثل الشيخ الإمام مُحَمَّد عبده نموذجاً خالصاً للشيخ المستنير والمحيط بتفاصيل فقهه، والمستنير في تحليله وتأويله لقضايا مجتمعه. وهذا ما يعكسه فهمه لصول الإسلام الحنيف من خلال استقراء الإشارات والتنبيهات حول هذه الأصول. وهذا الفهم يشكر خارطة إصلاح استشرافية للخطاب الديني الذي بات مضطرباً ومضطرماً بعض الشئ بفضل اللغط الراهن في هذا الخطاب ورؤيته وتعدد رسالاته.

وليس من العجب والدهشة ما نطالعه في كتابات الإمام عن رؤى تربوية إصلاحية رائدة، فالشيخ الإمام مثلاً يرى أن أهمية تدريس الكتب الأدبية تكمن في تنوير الأفكار وتهذيب الأخلاق، وهذه الفكرة ـ أقصد التنوير ـ ظلت محور اهتمام الإمام، فكم من مرة أشار إلى ضرورة الإلمام بالكتب الأدبية التي توضح أحوال الأمم، والتي تحث على الفضائل وتنفر من الرذائل وارتكابها.

بل يدهشنا الإمام إلى أكثر من ذلك، ويكاد يسبق كل الصيحات والأصوات العالية المعاصرة التي تنادي بضرورة تطوير وإصلاح التعليم في مصر، ولا أشك لحظة أن القائمين على عمليات التطوير الشكلية مهتمون بما كتبه وسطره الشيخ الإمام في ذلك الصدد. ولقد أشار أشار الشيخ

الإمام رغم بُعد المسافة الزمنية إلى أن مشكلاتنا الحضارية تكمن في هذا القصور في التعليم الديني ؛ إما بإهماله جملة كما هو في بعض البلاد، وإما بالسلوك إليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر.

والإمام مُحَمَّد عبده في صراعه الشريف لمواجهة القصور في الخطاب الديني بوجه عام والتعليم الديني بوجه خاص، يحدد عدة أصول رئيسة للإسلام والتي من شأنها كفيلة بمعالجة هذا القصور والخلل سواء في الخطاب أو التعليم أو كلاهما معاً. فعلى سبيل المثال يرى الإمام مُحَمَّد عبده أن النظر العقلي هو أول أساس وضع عليه الإسلام، حيث إن النظر السليم عنده وسيلة الإيمان الصحيح، ولا ريب في ذلك حيث إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يدعو إلى النظر في ما حولنا من موجودات وظواهر وأحداث كونية متعددة ومختلفة على أن يكون هذا النظر مصحوباً بالتأمل العقلي والتفكر، فهي دعوة إلى النظر الحسي والعقلي في نفس الوقت، يقول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾ (الأنعام ـ ٥٠)، ولا ريب أن قوة الملاحظة والوقوف على ما يحدث حول الإنسان،وفهمه وتأمله ودراسته واستخلاص النتائج منه يؤدي إلى اليقظة العقلية وهي من أهم سمات التفكير العلمي السليم. وللإسلام الحنيف دور بارز في تنمية القدرات العقلية للإنسان مثل القدرة على الاستنتاج، والتأمل، والتفسير، وإدراك العلاقات....

ويكمل الشيخ الإمام مُحَمَّد عبده الحديث عن أصول الإسلام، بقوله إن تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض لهو من أبرز أصوله، حيث يقول: " اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلا ممن لا ينظر إليه على أنه إذا

تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول، مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثانية: تأويل النقل، مع المحافظة على قوانين اللغة، حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

والمستقرئ لتعاليم الإسلام وآيات القرآن الكريم يدرك على الفور أن الدين الإسلامي أعطى مساحة كبيرة للعقل وبيان أهميته ودوره في إدراك الحقائق والظواهر الكونية، والقرآن الكريم يحث الإنسان على استعمال العقل إلى أقصى حد مستطاع، ويشيد بمن يستعمله، ويعمل فكره في النظر والتدبر، واستخلاص البراهين والنتائج من المعلومات التي تتوافر لديه من الأمور الدينية والدنيوية. يقول الله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ (ص: ٢٩)، ويقول تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ (العنكبوت: ٤٣).

ومن الأصول التي اعتبرها الإمام مُحَمَّد عبدة رئيسة وأساسية في الإسلام بل وأعده حكماً رئيساً من أحكامه وهو البعد عن التكفير، ويقول في ذلك " إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه، ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حمل على الإيمان، ولا يجوز حمله على الكفر ". و هناك قاعدة تقتضي بأن التكفير حكم شرعي من أحكام الدين له أسبابه، وضوابطه، وشروطه، وموانعه، وآثاره. وهذه القاعدة لا ترتبط بدين معين، أو مله بعينها، والتكفير حق لله فلا يكفر إلا من كفره اتلله الله المطلع على ما في الصدور، والشهيد على أعمال عباده من البشر، وثبوت الكفر على المرء أمر لا يثبت إلا بدليل شرعي متفق عليه، سواء من النص، أو بإجماع

العلماء والفقهاء كافة، وليس القلة منهم.

وما أخطر التحديات التي تواجهنا هذه الآونة من باقة الأنفلونزا، والتيفوئيد، والحمى القلاعية، والكليبات الفاضحة، وعلاوة على ذلك استباق البعض في إلقاء تهم التفكير على الآخر، وكنت قديماً أسمع تهم التفكير تلصق بكبار المفكرين والأدباء والشعراء، أما اليوم فعلى العامة، والأدهش أن من يلقي هذه التهم ليس عالماً بالأدلة الشرعية الثابتة.

ولعل أبلغ تشبيه للغلو في التكفير هو " الورطة"، ولقد توعد رسول الله (عليه الصلاة والسلام) بهؤلاء الذين يكفرون إخوانهم بقوله: " لا يرمي رجل رجلاً بالفسق ولا يرميه بالكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك". أما الآن فأصبح التكفير أسرع حكم يمكن أن يصدره إنسان على أخيه، وإذا كان التكفير قديماً سلاح خفي يستخدمه بعض المتطرفين في مواجهة خصومهم، فاليوم أصبح أداةً هجومية تستخدم قبل وأثناء وبعد الحوار مع الآخر، هذا إن كان هناك حوار من الأساس. وهذا السلاح كان قديماً يردده رجل على مرأى ومسمع قلة من الحضور ببلدة صغيرة، ثم يتناقل الخبر بصورة وئيدة ثقيلة حتى تصل لرجل يطالع حظك اليوم في شرفته، أما هذه الأيام فالنار تستعر بالهشيم سريعاً، من خلال المنتديات، والفضائيات، والمدونات، والرسائل الإليكترونية، والفيس بوك.

وأؤكد أن الإسلام في صورته الحقيقية قد دعا إلى احترام المرء لهوية أخيه المسلم، ليس هذا فقط بل ذهب بعيداً إلى الاحترام والإيمان بهوية الآخر، وفي ذلك نجد قوله تعالى: ﴿ مَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ

وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

وإذا سألت أحد رجال الدين المستنيرين عن الغلو في التكفير لذكر لك أن المجازفة بالتكفير شر عظيم وخطر جسيم، وقد ذاقت الأمم كثيراً من ويلاتها ووبيل عواقبها، وليدرك هؤلاء قول الله تعالى في تحذير عباده من الغلو في التكفير (فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة).

والمتأمل لهذا الأمر ـ الغلو في التكفير ـ يرى عواقبه التي تتمثل في استحلال الدم ومنع التوارث وفسخ عقد الزواج وتحريم إقامة الفرائض. ويدهشني كثيراً حينما أقرأ لشيخ الإسلام ابن تيمية الذي يتخذه معظم السلفيون إماماً لهم حينما يقول: فليس لأحد أن يكفر أحداً من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة ويبين له المحجة وإزالة الشبهة.

ويرى الشيخ الإمام أن قلب السلطة الدينية والإتيان عليها من الأساس هو من أجل أصول الإسلام، ويؤكد الإمام مُحَمَّد عبده أن الإسلام عمل على هدم بناء تلك السلطة، بل ومحا أثرها، ويشير إلى ذلك بقوله: " لم يدع الإسلام لأحد لأحد بعد الله ورسوله سلطاناً على عقيدة أحد، ولا سيطرة على إيمانه، على أن الرسول (ﷺ) كان مبلغاً ومذكراً لا مهيمناً ولا مسيطراً ". يقول الله تعالى: (﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ (٢٢) إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ (الغاشية: ٢١.٢٣)، .

ويدخل الشيخ الإمام وهو بصدد تحديد أصول الإسلام في معركة لا تبدو قديمة فقط بل هي معركة لا تزال مستمرة في وقتنا الراهن، ألا وهي

ضرورة أن يفهم كل مسلم عن كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله بدون توسيط أحد من سلف ولا خلف، وإنما يجب عليه قبل ذلك.

ولكن نجد بعد تصاعد الشهود السياسي للتيارات الدينية أن منهم من يصر على أن يصبح مرجعية دينية فقهية أشبه بالمرجعيات الموجودة بالجمهورية الإسلامية الإيرانية أو بجنوب لبنان من المرجعيات الشيعية التي تنتزع الحقيقة والبرهان بغير منازع، وهو ما يجعلها تفرض على المجتمع الانصياع التام لمقدمات ومعلومات وفتاوى لا تسير في اتجاهين ولا تقبل التفكير فيها مرتين.

وهذا ما يؤكد عليه الشيخ الإمام بصورة أخرى، حيث يرى أن الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم، ولا هو مهبط الوحي، وهو لا يقصد بذلك الخلفاء الراشدين الأربعة، إنما هو يشير إلى منتزعي السلطان بدعوى الدين، حيث إن هؤلاء ليس من حقهم الاستئثار بتفسير القرآن والسنة دون العلماء، ولا أن ينفرد وحده بتلقي معالم وأحكام الشريعة، وهذا ما نجده في بعض التيارات الدينية المتشددة، حيث ترى أن لها حق الأثرة بالتشريع، ولهم في رقاب الناس والعامة حق الطاعة. ووفقاً لهذا المنطق فإن الحاكم ذا السلطان الإلهي هو مقرر الدين، وواضع أحكامه ومنفذها أيضاً.

ونجد الإمام يقررها صراحة بقوله " إن الإسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الأحكام، وكل سلطة تناولها أحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الإسلامي ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه في طريق نظره ".

وتصل بنا القراءة في فكر الشيخ الإمام مُحَمَّد عبده إلى الوصول لحديثه عن أصل راسخ ورئيس أيضاً في الإسلام وهو مودة المخالفين في العقيدة، وقد اقتصر الإمام في الحديث عن هذا الأصل بالإشارة فقط إلى المصاهرة أي إباحة الإسلام للمسلم بأن يتزوج امرأة كتابية مسيحية أو يهودية، وكيف جعل الإسلام من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها والقيام بفروض عبادتها، ونضيف على ذلك أن الإسلام الحنيف يسعى إلى تربية النشء والمسلمين على عدم احتقار الآخرين، ويدعوهم إلى احترام غيرهم وتقدير عقائدهم دون إكراه أو تدخل، يقول تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (البقرة، ٢٥٦).

وكان الإسلام بذلك من الأديان النادرة التي منحت أهل الديانات الأخرى ذمة الله ورسوله، لقوله تعالى: ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا غليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ (الممتحنة،٨). ومن هنا فإن المسلمين طوال تاريخهم الطويل لم يظلموا ذمياً أو كتابياً، بل إن الأمر كان يوجه لجيوش المسلمين وعدم هدمها أو الإساءة إليها كما أن أصحاب الملل الأخرى ارتقوا مناصب مهمة في كثير من الدول والإمارات الإسلامية دون تعصب ضدهم أو إساءة إليهم، وأن المؤسسات التعليمية والمكتبات الخاصة لهذه الملل استمرت تؤدي عملها في ظل الحضارة الإسلامية دون مصادرة لها أو تعطيل لعملها.

والفهم الصحيح لركائز الإسلام يدرك أنه حدد بعض الملامح الرئيسة في التعامل مع المخالفين في العقيدة مثل حريتهم في اختيار عقيدتهم، حيث

يرفض الإسلام أن يكره الناس على الدخول في عقيدة لا يرتضونها، فالإنسان بعقله الذي وهبه الله إياه، عليه أن ينظر أي طريق يسلكه من طريقي الهدى والضلال، وعلى المسلمين أن يبلغوا رسالة الإسلام إلى من عداهم، فإما أن يهتدوا ويختاروا طريق الخير وهو طريق الإسلام، وإما أن يختاروا الطريق الآخر.

وأنه لا يجوز الاعتداء على أنفسهم، يقول الرسول (ﷺ)" من قتل نفساً معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاماً".وكذلك لا يجوز الاعتداء على أموالهم، أو أعراضهم.

وكذلك وجوب الدفاع عنهم ضد كل من يعتدي عليهم، سواء أكان هذا المعتدي من مواطني دولة أخرى، وهم ما يسمون في الفقه الإسلامي بالحربيين، أم كان من أهل الذمة، أم كان من المسلمين. ويجوز الأكل من ذبائحهم لقول الله تعالى: ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم. والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين ﴾ (المائدة،٥) خضوع أهل الذمة وانقيادهم لأحكام الشريعة الإسلامية في ضمان الأنفس والأموال والأعراض، وأن تقام عليهم الحدود فيما يعتقدون تحريمه عليهم ، ومما يعتقدون تحريمه الزنا والسرقة والقتل والقذف، فهذه الأمور وأمثالها يجب خضوعهم لأحكام الإسلام فيها.

الفصل الثاني

حَمَلاَتُ تَشْوِيْهِ الإِسْلاَمِ فِي الإِعْلاَمِ الغَرْبِي

أصبح مصطلح الكونية من المواضعات الأكثر رواجاً في وسائط الإعلام المعاصر من صحافة وفضائيات وإذاعات مسموعة ومواقع ومنتديات إليكترونية، وبات من البدهي أن يحتل هذا المصطلح الحيز الأكبر من الجدال والنقاش في هذه الوسائط التي طفقت تفرد مساحات واسعة من الحوار وإبراز الخصائص والسمات وربما المناقب والمثالب له أيضاً.لكن رغم أن الوسائط الإعلامية ينبغي أن تنفرد بتقديم رسالات توعوية تهدف إلى نهضة وإعلاء العقول، إلا أن عدداً كبيراً من هذه الوسائل المعاصرة جعلت جُلَّ همها في النيل من الإسلام الحنيف.

فإذا كان الغرب قديماً استغل سلاح الاستشراق ومطاعن المستشرقين من خلال كتاباتهم وأبحاثهم في النيل من الإسلام والمسلمين، فإنه عاد من جديد ليواصل حملاته المشبوهة ولكن من خلال أسلحة أسرع انتشاراً وربما أقوى تأثيراً مستخدماً في ذلك سحر وتحايل الصوت والصورة في التأثير على المشاهد والمستمع. وبالفعل استغلت بعض هذه الوسائط لاسيما الفضائيات المفتوحة لاغتيال الثقافات العربية والإسلامية، بدعوى أن العالم أصبح قرية صغيرة ومن ثم فينبغي أن تكون لهذه القرية بؤرة اهتمام واحدة ورئيسة متغافلة في ذلك القوميات ذات الخصوصية والطبيعة المنفردة.

وسرعان ما وضعت هذه الفضائيات العقل العربي في بؤرة اهتمامها، وبدأت في حملة غسيل الأدمغة التي استهدفت محو الهوية الإسلامية لدى المسلمين وإحلال الكونية والقضايا المتعلقة بالبيئة العالمية أكثر من الاهتمام بقضايانا الراهنة والمصيرية، ورغم أن هويتنا العربية الإسلامية تشكل حصناً منيعاً إلا أن هذه الفضائيات الفارغة من الهدف والرؤية والرسالة الصالحة بدأت في استدراج المشاهدين العرب بعيداً عن حصونهم المنيعة، ثم العمل على تدعيم شعور عدم الثقة في الهوية الإسلامية الرشيدة عن طريق تصوير رغد الحياة العلمانية الغربية في مقابلة هذا الصلف العربي ووحشة صحرائه المقفرة.

والمتابع للصحف الغربية يستقرئ بسهولة صورة الإسلام والمسلمين بعيون الغرب غير المسلم، فالشهر الماضي طالعتنا معظم الصحف البريطانية بمقالات مطولة ودراسات صحافية مصورة عن الإسلام، وتلك المقالات لا ترى فيه ـ أي الإسلام ـ تنوعاً ثقافياً، أو تعددية حضارية، بل تجعله العدو الأول للعولمة والكونية في شكلها الثقافي والاقتصادي.

ويمكن لمن يطالع الصحف البريطانية على الإنترنت أن يرى كيف يصور الإعلام المقروء المرأة المسلمة، فهو يرى في الإسلام نموذجاً متخلفاً متعصباً للذكورية على حساب الأنثوية،، وأن المرأة طبقاً للمجتمعات الإسلامية الشرقية تصبح سلعة للرجال، محتجبة منعزلة، تعاني التهميش والتمييز والاستبعاد الاجتماعي.

وليس بالعجيب أن نرى صورة المرأة هكذا في الصحافة الغربية، فبين قصص السينما المبتذلة، وبين البرامج النسائية التي تبثها بعض القنوات

الفضائية العربية الفراغية (نسبة إلى الفراغ من المضمون)تقبع المرأة كياناً لا طاقة له، ولا وجوداً حقيقياً يميزها في المجتمع. ويظل وسط هذا الخطاب الإعلامي الذي ندعو جاهدين إلى تجديده وتطويره في جزيرة منعزلة عن المرأة نفسها، وهذا الخطاب الإعلامي هو خطاب مدرسي في الأصل، فالموضوعات المدرسية المرتبطة بدور المرأة غائبة عن الحضور المجتمعي، وأدوار التلميذات والطالبات في بعض مدارسنا التي تعاني الإهمال وهزلية التطوير التعليمي تقتصر على إلقاء الأناشيد المكرورة والمملة في بعض الأحايين.

والفضائيات الغربية الموجهة وهي في سعيها الدءوب لزعزعة الهويات الدينية تعمل جاهدة على انتفاء الخصوصية الثقافية العربية والإسلامية، عن طريق نقد الإنتاج الثقافي لهذا الوطن العربي الكبير، وإظهار أنه إنتاج ثقافي بائد لا ولن يتسم بالجدة والحداثة والمعاصرة، حتى يصلون بذلك إلى هدفهم الرئيس وهو التشكيك في قيمة مصادر الإسلام الحنيف القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ولاشك أن هذا السعي الخبيث يشكل تقويضاً خطيراً للهوية العربية والإسلامية التي نمتاز بها، ولولا اهتمام بعض الهيئات والوزارات كالأوقاف والشئون الإسلامية والأزهر الشريف وبعض المؤسسات والمنظمات الدينية بتوعية الشباب وتكريس نزعة الاعتداد بالثقافة الإسلامية لفسد حال هؤلاء ولضن علينا معالجة أوجه القصور والخلل.

ونحمد الله أن الوطن العربي يحظى باهتمام واسع من قبل مؤسساته وأجهزته الرسمية للحفاظ على الهوية العربية الإسلامية، حيث إن الإعلام

العربي الرشيد يعي جيداً أنه يقوم بمسئولية شاقة وقيمة وهي الحفاظ على الهوية بصورة مستدامة، مع مراقبة ما تبثه الوسائط الإعلامية الغربية من لغط حول الإسلام للرد عليها ودحض أفكارها المشوهة.

ومن هنا كان للإعلام العربي دور مهم في الالتزام بنقل المعارف والمعلومات والبيانات بالإضافة إلى التوعية المستمرة لحملات تشويه الإسلام وتدعيم أركان الثقافة الدينية لدى جمهور المستهدفين. الغريب في الأمر أن هذه الوسائط الإعلامية التي تدعي الكونية والعولمة والمنادة بثقافة واحدة يلتزم بها الجميع أن نجدها تفرض وصايتها الإعلامية على العقل الإسلامي، فهي تنادي بشئ وتقوم بعمل آخر، فهي تصر على احتكار نقد الخطاب الإسلامي، ونقد الرموز والقامات الفكرية الإسلامية.

والمستقرئ لما تبثه بعض هذه الوسائط من صحافة وفضائيات وإذاعات ومواقع إليكترونية يدرك على الفور زيف الشعارات التي ينادي بها هؤلاء الكوكبيون أو العالميون، ففي الوقت الذي يطلقون العنان لحرية الرأي والتفكير يقيمون سياجاً وعوائق ذهنية أمام الرأي الآخر، فإذا هم انتقدوا الإسلام والمسلمين فعلى الجانب الآخر يرفضون رفضاً شديداً في أن يظهر أحد المفكرين المسلمين في وسائطهم للحديث عن الإسلام وعن مبادئه الإنسانية.

وهذا الترصد الواضح من قبل وسائط الإعلام الغربية يجسد عن قرب حقيقة العداء القديم للإسلام والمسلمين، فهذ الغرب لا يزال يرى في الإسلام خطراً على مصالحه وتحقيق رغباته غير المنضبطة أخلاقياً، ويرى أن الإسلام بشرائطه وضوابطه الحاكمة يقف عائقاً منيعاً أمام إمبرياليته

الاحتكارية التي لا تقبل التعددية، لذا فعمد عن طريق وسائطه تلك على الترصد بالمسلمين والتآمر على الإسلام من خلال اقتناص أي خبر أو جريمة أو فعل استثنائي قام به أي إنسان ينتمي عقائدياً فقط إلى الإسلام حتى يصوروا للعالم أن الإسلام دين يدعو إلى العنف والإرهاب والجريمة.

وبهذه الصورة الإعلامية الموجهة ضد الإسلام ورموزه أيضاً فمما لا يدع مجالاً للشك هو وجود مؤامرة قصدية للتآمر على معالم الشريعة ونقدها، ولكن الخطر الحقيقي هو تقاعس بعض المؤسسات الدينية عن الرد على تلك الافتراءات التي لا تنقطع ليل نهار، وبل وأصبح بعض المؤسسات الدينية في بلداننا العربية مشغولة بالشأن الداخلي لبدانها دون التعريض لمثل هذه الحملات التي تشن ضد الإسلام.

ومن هنا ينبغي على كافة الوسائط الإعلامية الإسلامية والمؤسسات الدينية الرسمية وغير الحكومية في وضع خطة سريعة لمواجهة مثل هذه الحملات الغربية التي تشوه صورة الإسلام والمسلمين، وتجعل الإسلام وجهاً لعملة الإرهاب والتطرف رغم أن الإسلام هو دين الوسطية والاعتدال وينبذ كافة صور العنف والتطرف والغلو في الدين والمعتقد. ولابد وأن تهرع جامعة الدول العربية ولجانها المعنية بالشئون الدينية والثقافية بالاهتمام بمثل هذه المؤامرات، ولا ينبغي أن نغرق حتى أذنينا في هوس الشأن السياسي فقط، فلابد من إعطاء أهمية كبرى لتوصيل صورة صحيحة للدين الإسلامي ومعتنقيه لكافة دول العالم.

ونحن بحاجة ضرورية إلى تطوير الخطاب الديني في الإعلام العربي، ليس هذا فحسب، بل وتطوير الإعلام الديني الرسمي ومناسبته للتحديات التي

تواجه الإسلام نفسه، وربما أن معظم هذه التحديات والصعوبات كنا قد أوجدناها بأيدينا نحن، ومع كل هذا نتهم الغرب بالمؤامرة، ونقيم نظريات تفسرها وتؤولها، وإن كان هذا هو قول ومظان الإعلام الغربي عن الإسلام، فعليهم أن يدركوا بالفعل والقول معاً مكانة هذا الدين الحنيف ودوره الكوني والثقافي، ونقل محاوره الثابتة بالنص والعقل إليهم من خلال خطاب إعلامي عربي رصين.

ولعل عصرنا هذا في خمة ديننا عن العصور السابقة المنصرمة، فالوسائط الإعلامية أصبحت اليوم أكثر سرعة وانتشاراً عما مضى، وهذا كفيل بدوره في سرعة نقل شريعة الإسلام الحنيف إلى الغرب، وإلقاء الضوء على المصادر الصحيحة للإسلام المتمثلة في القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة. وكذلك إلقاء الضوء على بعض القامات الفكرية في تاريخ الإسلام وما لهم من أدوار مشرقة في رفعة هذا الدين..

الفصل الثالث

المَرْأةُ في الإسْلامِ

تشير أصابع أعداء الإسلام من العلمانيين والليبراليين بالاتهام خفية وعلانية بأن الإسلام معاد حقيقي للمرأة، وأنه هضم حقها، وأغفل حقيقتها ودورها التاريخي قبل الإنساني. والمجال غير متسع لعرض وضع المرأة قبل الإسلام، وما كان عليه النكاح من صور أكثر وحشية وهمجية واحتقاراً لها من نكاح استبضاع، إلى نكاح الرهط، مروراً بنكاح صواحبات الرايات، انتهاءً بنكاح الشغار والبدل والضغينة.

ولا شك أن موقف المرأة كان صعباً في ظل التصور الإسلامي لبعض الصحابة، ورغم ذلك شاركت النساء في النضال اليومي للعيش والحياة الاجتماعية والاكتشاف اليومي لطبيعة الإسلام، فكن يعملن بالإضافة إلى اكتشاف أحكام القرآن والإسلام دون تمييز أو تهميش أو إلغاء، وهذا يدل على أن المرأة ليست هي العورة، بل إن العورة هي العورة، وهو ما فصله رسولنا الكريم ﷺ، فكانت المرأة تغزل وتنسج وتبيع ما تصنعه وسط مرأى ومسمع الجميع، وهذا يؤكد طبيعة المجتمع المدني الذي لا يميز أي فرد عن بقية أعضائه.

ولو أن الإسلام قد قوض مكانة المرأة، وسعى إلى تغييبها حضارياً لما سمعنا أسماءً بعينها من نساء الإسلام الصالحات، كالسيدة خديجة، والسيدة

صفية، والسيدة فاطمة، وزينب بنت جحش، وأم أيوب الأنصاري، وجهيزة، وأم حكيم، وغيرهن كثيرات. ولابد أن نقر حقيقة تاريخية وهي أن الإسلام أنصف المرأة الإنصاف كله، وأزال عنها ما لحقها من ظلم، وحررها من العبودية واستغلال جسدها، ورفع مكانتها وأعلى منزلتها، في الوقت الذي لم يعترف الغرب بحقوق المرأة إلا في القرن التاسع عشر بعد جهاد طويل.

وعجيب جداً أمر هؤلاء الذين يقصرون حقوق المرأة في حجاب رأسها، وارتدائها للبنطال، ومشاركتها العمل وسط الرجال، وذهابها إلى صلاة التراويح، وغيرها من القضايا الجدلية لصرف الأنظار عن سماحة الإسلام وإتاحة الحرية للمرأة في معاملات البيع والشراء، والاحتفاظ بمالها، وقد أجاز لها حق التملك،وساوى بينها وبين الرجل. والله تعالى يقول في ذلك: ﴿ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فألئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا﴾.

والإسلام الحنيف لم يمنع المرأة من الجهاد والعمل، قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾، والتاريخ الإسلامي يحفظ أسماء الصحابيات اللاتي جاهدن في سبيل الله مثل الربيع بنت معوذ التي قالت: كنا نغزو مع رسول الله نسقي القوم ونخدمهم ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة.هذا بخلاف ما صنعه الإسلام للمرأة من حق الميراث وكانت لا ترث، وكذلك تحريمه لوأد البنات وهن صغيرات.

لكن معظم العلمانيين من العصر الحديث يضيقون النظرة نحو الإسلام

ويصرون على إظهار الفروق القليلة بين حقوق وواجبات كل من الرجل والمرأة، ونؤكد لهم أن هذه الفروق المعدودة كما ذكر شيخنا مُحَمَّد الغزالي احترام لأصل الفطرة الإنسانية وما ينبني عليها من تفاوت الوظائف، فالأساس قوله تعالى: ﴿ فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض﴾.

وأكاد أجزم لهؤلاء الذين يؤكدون خفية وجهراً على أن الإسلام قد قهر المرأة، بأن أبين لهم أن الإسلام منح لها حق الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتدريس، بل ومجادلة الملاحدة والمارقين. لكن المحاربين ملتزمون بقضايا فتنة ذكر المرأة لاسمها، ووجهها العورة، وصوتها العورة، والكارثة أننا ابتلينا منذ فترة ليست بالقريبة بأناس لا يتدبرون القرآن، ويحرفون كلام رسول الله ﷺ عن مواضعه، فيبذلون قصارى جهدهم في إحداث فتنة حقيقية سلاحهم فيها المرأة.

لقد بنيت حقوق المرأة في الإسلام على أعدل أساس يتقرر به إنصاف صاحب الحق، وإنصاف سائر البشر معه، وهو أساس المساواة بين الحقوق والواجبات،وإذا كانت الدول المتقدمة اليوم تنادي بتمكين المرأة اجتماعيا وسياسياً ودينياً،فإن الإسلام منذ أربعة عشر قرناً وثلاثين سنة قام بها وخير دليل بيعة العقبة الكبرى، ومن العجب ترك الزمام لهؤلاء الذين يصرون على جعل المرأة كائن غير طاهر، وأنها عديمة التفكير ولهم جميعاً أردد قول الشاعر:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم

أم المؤمنين حفصة بنت عمر

تزوجت الطاهرة الشريفة السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) من خنيس بن حذافة السهمي، وهو احد المهاجرين، وهذا الرجل شارك في غزوتي بدر وأحد التي استشهد فيها، وبعد وفاة زوجها وانقضاء عدتها أخذ عمر بن الخطاب في السعي إلى زفافها لأحد الصالحين، فعرض زواجها على الصديق أبي بكر (رضي الله عنه)، ولكنه لم يجبه بشئيذكر بشأن هذا الموضوع، ثم طفق يعرض الأمر على الخليفة الراشد عثمان بن عفان (عفا الله عنه) لكنه لم يوافق على الأمر بقوله: " بدا لي ألا أتزوج اليوم".

فحزن عمر بشأن زواج ابنته، فعرض حاله على حبيب الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال له: " يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، وتتزوج عثمان من هي خير من حفصة". ثم خطبها لنفسه، فزوجه عمر، وزوج عثمان بابنته رقيه (رضي الله عنها) بعد وفاة أختها.

وأكرمت السيدة حفصة بشرف الزواج بالنبي (صلى الله عليه وسلم)، فتعلمت الدين من مصدره السليم والصحيح، واكتسبت مكارم الأخلاق الحميدة على يد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولولا أن السيدة حفصة كانت بعيدة عن أضواء الحياة السياسية بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) لذاع صيتها كالسيدة عائشة في طلب العلم والحديث على يديها، إلا أنها كانت أيضاً تعرض حديث الرسول حتى وفاتها أيام ملك معاوية بن أبي سفيان (عفا الله عنه).

ومن أشهر الحوادث التاريخية في عصرها هو حادثة جمع القرآن الكريم الذي تم في عهد الصديق أبي بكر (ﷺ) حينما عرض الأمر على عمر بن الخطاب (ﷺ) وتشاورا في الأمر، حتى انتهى بهما المطاف إلى جمعه فجمعه الصحابي الجليل زيد بن ثابت.

وبعد أن تم جمعه أخذت النسخة ووضعت عند أبي بكر الصديق (ﷺ)، فلما توفاه الله تعالى أخذ النسخة عمر بن الخطاب، ولما استشهد الفاروق وهو يصلي على يد أبي لؤلؤة المجوسي، أوصى عمر بن الخطاب أن تكون النسخة محفوظة لدى السيدة الطاهرة حفصة.

وبعد أن تولى الخليفة عثمان بن عفان الخلافة، توالت الفتوحات الإسلامية في عهده، ودخل الكثير من غير العرب الإسلام، فأثروا في اللغة العربية ومقاماتها كما تأثروا بها أيضاً، وكانت نتيجة هذا التأثر اختلاف القراءة القرآنية لاختلاف الألسنة واللهجات، فعمد عثمان بن عفان أن تحرق كافة النسخ الموجودة للقرآن، ذلك أن يوجد به أخطاء تحرف المبنى والمعنى، وخوفاً من اللحن في اللفظ القرآني الشريف الذي تعهد الله بحفظه، وسعى إلى الاعتماد على نسخة واحدة أصيلة، وكانت هذه النسخة الأصيلة والسليمة هي الموجودة عند السيدة الفاضلة حفصة بنت عمر (رضي الله عنهما)، فأخذت النسخة من عندها وتم نسخ القرآن أكثر من نسخة ووزعت على كافة الأمصار، وأصبحت نسخة مصحف حفصة هي المرجع الرئيس لنسخ القرآن الكريم.

ولابد للتاريخ الإنساني أن يحفظ دور السيدة حفصة عليه، فتخيل لو ضاعت هذه النسخة من بيت السيدة حفصة، ولكن كيف تضيع وهي

امرأة أمينة حافظة ضن زماننا الحالي بامرأة مثلها نرى فيه الزوجة تهدر مال زوجها بغير حق، وزمان نرى فيه امرأة حاكم تتصرف في مقدرات شعبها وكأنه ميراث خاص لها. ولكم أن تتخيلوا وجه الإسلام الحضاري الجميل، فلم نر مثلاً رجالاً ومن هم؟ هم صحابة رسول الله أن يعترضوا على وجود النسخة الوحيدة للقرآن عند سيدة، ولكم من هي أيضاً؟ هي زوج رسول الله (ﷺ). هكذا كان الإسلام ولعله يعود مجدداً كما كان.

السيدة نفيسة

معظم المسلمين المنتشرين في شتى بقاع الأرض يقدرون ويعظمون قدر ومكانة السيدة الطاهرة الشريفة العفيفة السيدة نفيسة عليها السلام، ورغم ذلك فإن معظمنا لا يعرف شيئاً بسيطاً عنها أو عن حياتها، وذلك بفضل ما كانت تمارسه سياسات النظام التعليمي في تجهيل المصريين بصفة عامة والمسلمين في مدارسنا وجامعاتنا بصفة خاصة.

والسيدة الطاهرة نفيسة، هي ابنة الإمام الحسن بين زيد بن الشهيد الحسن بن علي بن أبي طالب (أكرم الله وجهه). وهذه السيدة قد تزوجت ابن الإمام جعفر الصادق بن الإمام مُحَمَّد الباقر ﷺ أجمعين، ولها من الأبناء اثنان القاسم وأم كلثوم. وليتنا كالسيدة نفيسة فلقد حجت إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة، لن يصدقني القارئ إن ذكرت له بأن أكثر هذه الحجات كانت سيراً على أقدامها.

ومن أشهر ما عرف عن هذه السيدة الطاهرة الزهد والبعد عن حياة البزخ والترف، كما شهد لها كثرة الصلاة والقيام، وتسرد كتب السير

والتراجم أن الإمام الشافعي (رضي الله عنه) لما قدم إلى مصرنا المحروسة سمع عليها حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، كما أنه إذا أصابه مرض كان يرسل إليها طلباً للدعاء ولم لا وهي امرأة صالحة نظنها من عباد الله الربانيين. وحينما توفي الإمام الشافعي (رحمه الله) أحضر جثمانه إليها قبيل الدفن، فصلت عليه من وراء حجاب.

ولم تخل سيرة السيدة الطاهرة نفيسة (رضي الله عنها) من بعض الحكايا الجميلة التي تؤكد مدى ورعها ويقينها الديني أنها هي بنفسها التي حفرت قبرها وتلت فيه القرآن حتى ختمته أكثر من مرة، ولقد توفت الطاهرة السيدة نفيسة في اليوم الذي أتمت فيه حفر قبرها.

ولم توفيت السيدة نفيسة عزم زوجها إسحاق بن جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر (رضي الله عنهم أجمعين) إلى دفنها في المدينة المنورة، فطلب منه المصريون ساعتها أن تبقى عندهم لمكانتها وبركتها العالية، فسمح بذلك وفنت في موضعها المعروف باسمها.

الفصل الرابع

القيم الإسلامية

بنظرة سريعة غير فاحصة لما اعترى المجتمعات العربية المعاصرة ندرك على الفور مدى الاستقطاب المادي لمعتقدات وأفكار أبنائنا من الناشئة الصغار، وهذا الاستقطاب من شأنه أن يمثل خطراً مستداماً يقوض ثبات المجتمع الإسلامي. ومن هنا تبزغ القيم كسياج أمان يحفظ للمجتمع وأبنائه قوته وصلابته.

وإذا تحدثنا عن القيم بوجه عام بغير تخصيص وجب علينا الإشارة إلى المؤسسة الأولية التي تدفع بالقيم نحو أعضائها ألا وهي الأسرة النواة الأولى الطبيعية لتكوين المجتمع الكبير. وهذه المؤسسة التي تتكون من الوالدين والأبناء وربما الجد والجدة أيضاً كفيلة بتقديم جملة صالحة من القيم الإسلامية التي تكرس لمجتمع ثابت ومنتظم في أفكاره وآرائه ومعتقداته.

والأسرة هي التي تضمن انتقال وتقديم مجموعة من الأخلاق الإسلامية العامة التي تنظم سلوك أفرادها، بل هي النظام الأولي الحاكم للفرد في وضع ضوابط وشرائط حاكمة له في صورة قيم ومبادئ ينبغي الالتزام بها لضمان استقرار الأسرة أولاً وضمان توازن الفرد داخل مجتمعه الخارجي المتمثل في المدرسة والمسجد والنادي والجامعة.

ولن تستطيع الأسرة أن تقوم بهذه المهمة إلا إذا توافرت بداخلها علاقات اجتماعية طيبة يسودها التعاون والتوافق في الآراء والمعتقدات

ووحدة الهدف والمصير المشترك.ويستحيل أن تقوم الأسرة في نقل وتقديم القيم الإسلامية كالتعاون والإيثار إلى أحد أفرادها في ظل مناخ أسري يسوده التشاحن والفرقة.

وثمة علاقة طبيعية وارتباطية بين الأسرة العربية والقيم الإسلامية التي تسعى النواة الأولى للمجتمع في إكساب أفرادها تلك القيم، هذه العلاقة هي تمتع كل من الأسرة والقيم بسمات مميزة كالثبات والرمزية والاستمرارية والاستقرار وعدم اختلاف شكلها باختلاف المجتمعات العمرانية. فالأسرة بقوامها المعتاد تتمتع بثبات في ترتيب أعضائها وتحديد مهامها المنوطة بها، بجانب تمتع القيم الإسلامية بقدر عال وكبير من الثبات لأنها تستقي مبادئها من مصدرين ثابتين لا يتغيرا وهما القرآن الكريم الذي تعهد الله أولاً بحفظه من التحريف والتصحيف واللغط البشري، ثانياً تضمن القرآن الكريم الكثير من المبادئ والقيم الإسلامية القويمة. والسنة النبوية المصدر الثاني للتشريع الإسلامي وهو ما أثر عن النبي (ﷺ) من قول أو فعل أو صفة أو تقرير.

ولعل ثبات مصادر القيم الإسلامية هو الذي ضمن لها قدراً هائلاً من الاستقرار والديمومة والاستمرارية بغير خلل مهما تباينت ظروف المجتمعات وتوافدت مستجدات مدنية جديدة على الأسرة. وثبات المصدر أيضاً حفظ للقيم عالميتها وصلاحيتها لكل زمان ومكان بحكم أن القرآن الكريم والسنة والنبوية صالحان لكل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة بإذن الله تعالى.

ولقد انفردت القيم الإسلامية بسمات أخرى غير الاستقرار والثبات والديمومة من أنها حفظت استقرار الأسرة ومن ثم المجتمع، من هذه السمات تمتعها بالجانب والطابع الاجتماعي، مثل حب الخير والتعاون

والمشاركة ورعاية الصغير والعطف عليه واحترام الكبير وتقديم المشورة وإسداء النصيحة،فمثل هذه القيم وغيرها ضرورة اجتماعية لأي تواجد عمراني بشري بين الأفراد، ومثل هذه القيم نراها غريبة على المجتمعات الغربية التي أعلت من قيمها المادية وأغفلت عن قصد الجوانب الاجتماعية الي تحمل في طياتها ملامح إنسانية محضة.

وما تنفرد به القيم الإسلامية أنها تقدم لأول مرة للفرد عن طريق الأسرة وهي ما تكسبها صفة السلطة الحاكمة لأنها مشتقة من مقاصد الشريعة الإسلامية الثابتة والواضحة ومقدمة عن طريق كيان اجتماعي راسخ يتمتع بسمة الاحترام المطلق.فسرعان ما تتحول هذه القيم من مجرد مبادئ مثالية تقدم من خلال قصة أو موقف مخصص أو استثمار لحادث طارئ على الأسرة إلى إلزام مطلق يسعى المرء بعد ذلك في اتباعه حينما يخرج من كنف الأسرة النواة الأولى إلى مؤسسات المجتمع بصفة عامة لاسيما وأنها مستقاة من سلطة الدين نفسها.

ومن أجل أدوار الأسرة في حياة الفرد أنها رغم تطور الحياة في المجتمعات وتعقد المناشط المجتمعية لغلبة المادية إلا أن فطرة الأسرة وبساطة تكوينها سمحت لها بإنتاج وتقديم القيم لأعضائها والعمل على تكريس تلك القيم في نفوس المنتمين لها، وفطرة الأسرة أكسبتها مصداقية مطلقة في تقديم وإعادة إنتاج القيم بخلاف المؤسسات الاجتماعية الاصطناعية الأخرى كالمدرسة والجامعة ومكان العمل والأندية والجمعيات حيث إن الجانب غير الفطري يكون ملمحاً رئيساً بها.

الفصل الخامس

شَبَكَاتُ التَّوَاصُلِ الاجْتِمَاعِي..
الرُّؤْيَةُ والرِّسَالَةُ والحِمَايَةُ

ظل التربويون والمربون سنوات طويلة يبحثون عن إجابة شافية وكافية لسؤال مستدام وهو كيف نحمي شبابنا المسلم من التيارات والمستجدات المعاصرة التي لا تتفق وقيمنا الإسلامية ومعاييرنا الراسخة والمستمدة من مصدري الإسلام الرئيسين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

وأخذ كل عالم يفتش في مصادره الثقافية عن وسائل مواجهة هذه المتغيرات التي قد تعصف بالبناء الفكري والقيمي والديني للنشئ المسلم، فتارة يؤكدون على أهمية دور المسجد كمؤسسة دينية أولى منوطة بإقامة الشعائر الدينية وتربية الطفل المسلم تربية سليمة في مناخ مؤهل لذلك.

بينما ذهب آخرون إلى بيان دور المؤسسة التعليمية في الحفاظ على الهوية الإسلامية من خلال مناهج تعليمية توضح حقيقة الإسلام وعباداته والقيم التي تنطوي تحته. وعاد البعض الآخر إلى النواة الأولى في إعاد الفرد ألا وهي الأسرة المتمثلة في الأبوين، واستنهاض الدور الغائب لهما في تربية وإعداد الفرد لمواجهة ما يطرأ على حياة المجتمع اليومية من مستجدات ومتغيرات ثقافية وأيديولوجية.

ولكن وسط هذا البحث المحمود من جانب التربويين والمربين لسؤالنا

السابق، تفجؤنا متغيرات محمومة بالتسارع والاستباق، وهي ما تعرف بشبكات التواصل والتعارف الاجتماعي. وهي تلك الوصلات الإليكترونية التي تمتد عبر أنحاء العالم وتتيح للفرد فرصة مشاركة الآخرين خبراتهم وأطروحاتهم الفكرية والاجتماعية التي قد تتفق مع هويتنا الإسلامية والعربية بعض الأحايين، وتختلف وتتعارض مع الأيديولوجية الإسلامية أحياناً كثيرة.

ولا وبد وأن نقر حقيقة معاصرة، وهي أن العالم أصبح يعيش الآن ومنذ فترة ليست بالقصيرة ثورة مستدامة في الاتصال الاجتماعي والتواصل عبر مواقع خصصت لهذا الغرض ولا شك وأن بعضها قد يؤثر تأثيراً سلبياً على تنشئة الفرد المسلم لاسيما الشباب الذين هم عماد هذه الأمة الإسلامية وقوام نهضتها المستقبلية.

وفي محاولة لرصد ما يمليه الشباب . وهم الفئة الأكثر مشاركة في شبكات التواصل الاجتماعي . من مشاركات وإضافات يستطيع أي مستقرئ لتلك المشاركات إدراك ظاهرة العزلة والانطواء وقصور المشاركة الفعلية في أنساق المجتمع التي يعيشها هؤلاء، وأنهم يتأرجحون بين وسط اجتماعي افتراضي من نوع خاص يريدون إيجاده، ليكونون فيه المحور والمرتكز، وبين إسقاطات لبعض المشكلات والأزمات الحياتية والاجتماعية التي يمرون بها وهم غير قادرين على اتخاذ أي قرار حاسم بشأنها.

وهؤلاء الشباب وهم يعيشون في عالم افتراضي يسبحون فيه عبر صداقات لا تحمل مفهوم الصداقة بقدر ما تحمل رغبة محمومة في تغيير الوجوه التي يألفونها، وتجديد الآراء التي يسمعونها كل حين. لذا من السهل

على الراصد أن يدرك مدى تعدد مذاهب ومشارب مجموعة الأصدقاء التي يقيمها الفرد صاحب الصفحة الإليكترونية على هذه الشبكات التواصلية.

وكما تتعدد المذاهب والمشارب تتعدد صنوف المشاركات لهؤلاء الشباب ؛ بحثاً عن مناخ مناسب وملائم لاحتياجاتهم العمرية ومظانهم النفسية والعقلية، وتعد شبكات الاتصال الاجتماعي تلك متنفساً خصباً لهم، لاسيما وأن طبيعة شبكات التواصل تفرض عليهم عدم البوح بشخصياتهم الحقيقية وهو ما يتوافق مع حاجاتهم ودوافعهم في تقمص أدوار وشخصيات يريدون تقليدها أو محاكاتها.

ولعل أبرز المشاركات التي يقوم بها هؤلاء الشباب تتركز في الجانب الديني، حيث إن الشاب في هذه المرحلة يسعى جاهداً بقصد أو بغير قصد إلى تكوين توجه ديني صريح، قد يتسم بالمغالاة أحياناً، وقد يتسم بالتوجه الظاهري، أم الاعتدال أحيانا أخرى.

ويمكن اعتبار طرح الأسئلة المتعلقة بالدين من أهم مظاهر اليقظة العقلية لهؤلاء الشباب الذين يفضون بأسرارهم وما تحمله نفوسهم من مظان وحقائق تسير في طريقها لليقين المعرفي ، ويأتي ذلك في أعقاب النضج العقلي، وتتفتح ملكة النقد، ويكون الشباب أكثر قابلية لطرح تساؤلاته في الأمور الدينية، ولاسيما المتعلقة بالتوحيد، ووجود الله، والثواب والعقاب، و وهذا الطرح لدى المراهق أو الشاب يختلف باختلاف مزاجه وذكائه ومعارفه وظروفه الخاصة، فيتراوح بين الاهتمام النقدي العابر، والارتياب في بعض العقائد المغايرة لعقيدته.

وفي ظل اجتياح ثورة الفيس البوك والتويتر والنت لوج وغيرها من شبكات التواصل الاجتماعي، يميل الشاب في هذه المرحلة في أن يستقل برأيه، فنتيجة لنضجه العقلي أو الجسمي يشعر المراهق بأنه وصل إلى مرحلة يستطيع أن يتخذ فيها قراراته بنفسه، ويصبح أقل اعتماداً على آراء الكبار من حوله، وبقدر نفوره ومحاولته التخلص من آراء الكبار من حوله بقدر ما يرغب في أن يكون عضواً في جماعة من عمره الزمني، وتختلف نظرته برأي الجماعة عن نظرته لآراء الكبار، حيث نراه يلتزم ويخضع لرأي الجماعة لأجل الحصول على قبول ورضى تلك الجماعة وبالتالي يكتسب سلوك الجماعة سواء في اللبس أو الحديث، أو الأفكار.

وتسهم الصداقة الافتراضية من خلال شبكات التواصل المختلفة في نمو الإحساس بالهوية أو الكينونة، خاصة الصداقة ذات العلاقات غير المباشرة، أو ما يعرف بالأصدقاء المختبئين، وعندما يصل هذا الشاب إلى إحساسه بالهوية لمستوى معين من القوة والتماسك، فإنه يشعر بنوع من الدفء والألفة مع هؤلاء الأصدقاء، وتساعد هذه الألفة إلى تكوين هوية منفصلة عن الأسرة.

وتظهر الاتجاهات الدينية لدى الشاب بصورة واضحة في هذه المرحلة وتكون محوراً أساسياً في مساجلاته التواصلية مع الآخرين عبر شبكات التعارف والتواصل، لأن الاتجاهات ذات طابع اجتماعي، فهو يميل إلى مسايرة الجماعة التي ينتمي إليها ويفضل المناقشة معها في أمور تتصل بحياته وأفكاره وأحلامه، كما تتضح اتجاهاته إلى النقد والرغبة في الإصلاح، وميله إلى الزعامة.

وتتميز فترة المراهقة . التي ينتمي القسط الأكبر منها إلى ثورة شبكات الاتصال الاجتماعي . بأنها فترة يقظة دينية توضع فيها المعتقدات الدينية التي قد كونها المراهق في طفولته موضع الفحص والمناقشة، وتتعرض للتعديل حتى تتفق مع حاجاته الجديدة الأكثر نضجاً، ولذلك فإن مرحلة المراهقة يصبغها الاتجاه الديني والاهتمام الديني.

ويزيد من اهتمام الشاب بالمسائل الدينية أنه مطالب بممارسة العبادات بشكل أكثر جدية مما كان عليه الحال في الطفولة،بالإضافة إلى أن مناقشاته مع أصدقائه يغلب على موضوعاتها الأمور والمشكلات الدينية، وكما أن بعض الحوادث التي تقع له كموت صديق أو قريب، أو الصعوبات التي يواجهها تجعله يزداد تركيزاً على الدين وأموره.وتتميز هذه الفترة بظهور الاتجاهات المختلفة لدى المراهق، أبرزها الاتجاه الديني وهو يتكون عنده عن طريق المرور بخبرة معينة، ولا يتكون من موقف واحد بعينة، ولكنه ناتج عن مجموعة مواقف يتعرض لها المراهق، وتساعد هذه الاتجاهات الدينية في إشباع حاجاته ودوافعه، وتحقيق أهدافه التي رسمها لنفسه.

وإذا قمنا باستقراء اتجاهات الشباب الدينية من خلال رصد ما يقومون به من مشاركات من خلال شبكات الاتصال الاجتماعي يمكن تصنيفها في أربع فئات ؛ فئة تلتزم بقواعد الدين كما انتقل إليهم من البيئة التي نشأتهم دون ميل ظاهر إلى مناقشتها أو معارضتها أو حتى أخذها مأخذها تظهر فيه شخصيتهم، وفئة تأخذ الدين مأخذ الدين مأخذاً أكثر جدية، تتبدى فيها محاولة المراهق محاولة شخصية دعم الدين وتبريره

وتسويده على اتجاه مضاد. وفئة ثالثة لا تقف مع الدين موقف الاستسلام السلبي، وتتفق مع الثانية في إبراز شخصيتها إزاء الدين ولكن في اتجاه نقدي، وهذه الفئة تنتمي إلى المتشككين.

أما الفئة الرابعة والأخيرة:فهي فئة المنكرين لله إنكاراً واضحاً، وموقف هؤلاء يختلف عن موقف الفئة الأولى في تحررهم من الاستسلام والسلبية، وتتفق مع الثانية في الحسم، ولكنه حسم مضاد. والتوجه الديني عند المراهق يأخذ إحدى صورتين؛ الأولى هي توجه ديني ظاهري، وصاحبه غير ناضج انفعالياً، وغير متزن انفعالياً، حيث إن دوافعه الأولية تتحكم في سلوكه، كما أنه غير ملتزم بتعاليم دينيه ومعتقداته.

وفي هذا يعتبر عدم صدق النية، وعدم إخلاص الفرد في عمله وقوله لله عز وجل، تديناً ظاهرياً، ومثل ذلك الشخص الذي ينفق ماله في وجوه الخير ويتصدق بها على الفقراء دون أن يقصد به وجه الله وبداخله حب الثناء والتقدير من الآخرين.والصورة الثانية،هي التوجه الديني الجوهري، وصاحبه هو الذي يعيش دينه ويعده الغاية،ويعمل طبقاً لتعاليم دينه ويطبق ما أمر الله به، والإيمان بالعقيدة هو الدافع للحياة،أما الحاجات الأخرى فهي ذات أهمية ثانوية، ويمكن تكييف هذه الحاجات وتطويرها لكي تخدم الدين وتعاليمه.

والكثير من الشباب يرى في شبكات التواصل الاجتماعي مخرجاً لهم يبوحون من خلاله بانتماءاتهم الدينية التي ربما تحمل بعض مشاعر الاحتقان والتهميش للآخر، وربما يجدون فيه بوابة سحرية للتعبير بل والجهر بآرائهم التي ربما لا تحمل قدراً كبيراً من الصواب والاتزان الديني، ناهيك عن كم

وكيف الفتاوى التي يصدرونها دون وعي أو روية أو دراية، والأدهش أنهم يحملون على عاتقهم مسئولية حوار الأديان.

ولكن الأجمل لو أننا استثمرنا هذه الطاقة الإليكترونية في إدارة المعرفة المفيدة والنافعة ومن ثم تروجيها والنفع بها، وتعد إدارة المعرفة من أبرز ملامح القرن الحادي والعشرين، وتكاد تشكل مركزاً محورياً في أجندات الدول المتقدمة وهي تسعى لبناء نهضتها، حيث إن الاستثمار البشري والتنمية القائمة على المعرفة حلت محل الاستثمار المادي والتنمية القائمة على الاقتصاد. هذا المعنى نفسه ما أشار إليه فرانشيسكو خافيير كاريللو في كتابه " مدن المعرفة " Knowledge Cities، من جهة أن العالم المتقدم الآن يتسارع بصورة محمودة في استثمار الطاقات المعرفية للمواطن.

وأن فكرة حث المواطن على الابتكار والاكتشاف لم تعد من أفكار الترف والرفاهية، بل هي ضرورة حتمية لمواجهة تحديات وتطورات هذا العصر. وأنه ثمة مصطلحات أصبحت أساسية في قاموس تقدم الأمم وتميزها الحضاري مثل مرافئ المعرفة، والطبقة المبدعة، وشركات المعرفة، ومحركات الابتكار، ومواطن المعرفة، واكتساب المهارة.

وفكرة التنمية القائمة على المعرفة تخطت الحيز التصميمي والتنظيمي والتخطيطي لتكون واقعاً مرئياً ملموساً، بدليل تشييد مدن تم إنشاؤها لتضم المئات من الخبراء والمتخصصين في العلوم التكنولوجية هدفها جعل الإنسان هو رأس المال المستقبلي، وتصب مجمل اهتمامها في جعل القرن الحادي والعشرين هو قرن المعرفة، في الوقت الذي تبذل فيه دول أخرى لاسيما في أفريقيا جهوداً مضنية للحد من تفشي ظاهرة أمية القراءة

والكتابة، بالإضافة إلى محاربة مظاهر التلوث البيئي والانتشار المحموم للأوبئة والأمراض.

ومن المواضعات التي برزت بصورة طاغية في الألفية الثالثة مواضعة إدارة المعرفة، وهي من المفاهيم الإدارية الحديثة التي أصبحت تلقى اهتماماً بالغاً سواء من قبل الدول المنتجة للمعرفة أو عقب ما حدث ببعض البلدان العربية من ثورات سلمية كانت قوامها المعرفة وكيفية إدارتها. ويمكن القول بأن مفهوم إدارة المعرفة بدأ منذ ظهور الإدارة العلمية، حيث تم وضع أسس ومرتكزات علمية لعملية الإدارة، وكما كان لمفهوم الإدارة من لغط واسع في تحديده، كان أيضاً ولا يزال لمفهوم إدارة المعرفة، إلا أن هناك محاولات جاهدة في تحديد تعريف واضح المعالم والخصائص له، وهذا ما أشار إليه كل من ألفيسون و كاريمان (٢٠٠١م) حيث أشارا إلى أن إدارة المعرفة هي ظاهرة ديناميكية وغير محددة بشكل واضح ودقيق، الأمر الذي يجعل من الصعوبة بمكان وضع معنى واضح ودقيق ومحدد لها، وبالتالي صعوبة إدارتها كما تدار الأشياء الأخرى.

لكن بعد ثورة الاتصالات التي شهدها العالم في مطلع الألفية الثالثة وتوافر عدد لا بأس به من شبكات التواصل الاجتماعي أصبح ليس من الضروري إيجاد تعريف محدد لمفهوم إدارة المعرفة بقدر ما بات من الأهمية كيفية استخدامها بصورة مباشرة، ولقد نجحت الشركات عابرة القارات في استغلال إدارة المعرفة في تسويق منتجاتها وأيضاً البلاد المتقدمة في الترويج عن مميزاتها ومواردها بصورة شيقة جاذبة للمستثمرين والسائحين.

وبظهور مفهوم إدارة المعرفة بزغت ظواهر إنسانية جديدة متوافقة مع

ظهورها مثل مدن المعرفة مدن تم إنشاؤها لتضم المئات من الخبراء والمتخصصين في العلوم التكنولوجية هدفها جعل الإنسان هو رأس المال المستقبلي، وتصب مجمل اهتمامها في جعل القرن الحادي والعشرين هو قرن المعرفة، في الوقت الذي نقرأ فيه عن اختطاف أحد الأطباء لطلب فدية مالية من أسرته، وعن طفل تم تشويه وجهه من أجل خلافات تعود لوقت ثورة يناير، ورغم ما نحن فيه تبدأ دول أخرى في جعل قرننا هذا هو قَرن التَّعلُّم، واستبدال التّنمية الماديّة لتحل محلها التنمية القائمة على المعرفة.

وهذه المدن المعرفية أقامها رجال وحكومات ووزراء ورجال أعمال ليسوا كائنات من كواكب أخرى، بل هم بشر مثلنا، ولقد شاهدت شاهدت أفلاماً كثيرة على موقع اليوتيوب you tube عن مدن عجيبة مثل راجوزا، ومدينة معمل العقل بالدنمارك، ومعمل أفكار موميتم في شمال زيلاند، ومدينة المعرفة في برشلونة، ومدينة المعرفة في بلباو.

ومن خلال ربيع الثورات العربية الذي هب على دول مثل مصر وليبيا وتونس واليمن وسوريا بزغ من جديد مفهوم إدارة المعرفة، حيث استطاع الثوار في هذه البلدان من تحويل المعلومات والرصيد الفكري إلى قيم لعملاء الائتلافات وأعضائها، وتحولت المعرفة حينئذ من فن وعلم إلى سيناريوهات لمواجهة الأنظمة السياسية بها، واعتبرت إدارة المعرفة مورداً رئيساً للتنظيم والتخطيط ومن ثم التنفيذ وكان ذلك عن طريق استخدام بعض الوسائط الإليكترونية مثل البريد الإليكتروني والفيس بوك وتويتر وغير ذلك من وسائط التواصل الاجتماعي.

وما شهدته بعض البلدان العربية من ثورات يجعلنا نحاول استقراء دور إدارة

المعرفة في نجاح هذه الثورات، فإدارة المعرفة عبر وسائطها أتاحت انسياب المعرفة من المعارف إلى المستخدم، كما حفزت الإبداع والمشاركة في المعرفة، كما أنها ركزت على تفاعلات الجماعة المدعمة أكثر من بيئة المعرفة وهيكلها في قواعد بيانات ووثائق، كل هذا وكانت تكنولوجيا المعلومات والاتصال جزءاً رئيساً في إدارة المعرفة.

وإدارة المعرفة في عصر الثورات العربية التي شهدتها دول مصر وسوريا وتونس وليبيا واليمن مرت بمراحل يمكن توصيفها في ثلاث مراحل هي:

. مرحلة المبادأة: وهذه المرحلة تدرك المنظومة أهمية إدارة المعرفة التنظيمية والإعداد لجهود إدارتها وتشجيع الضغوط البيئية مثل العوامل الاجتماعية الاقتصادية المتغيرة والفنية والتنافس العالمي وحاجات المواطنين المرتكزة على المعرفة في تطبيق إدارة المعرفة. وفي هذه المرحلة من مراحل إدارة المعرفة تتطلب نشاطاً اجتماعياً بالمشاركة التطوعية لأعضاء التنظيم عندما شتركون في نفس الرؤية والأهداف.

. مرحلة الانتشار: في هذه المرحلة يركز الناشطون أو المدراء على كيفية بناء هذه القاعدة المعرفية بكفاءة وكيفية زيادة الأنشطة المرتبطة بالمعرفة، وتحاول المنظومة في هذه المرحلة البدء في استثمار وضع البنية الأساسية للمعرفة بهدف تسهيل وتحفيز أنشطة المعرفة مثل إيجاد وتخزين واستخدام المعرفة.

. مرحلة التكامل: ويتم في هذه المرحلة النظر إلى أنشطة المعرفة على أنها أنشطة يومية، وتركز الإدارة على تكامل المعرفة التنظيمية وعلى أنشطتها، وبالتالي فإن الأفراد العاملين يعتادون على ممارسة مثل هذه

الأنشطة. وينصب الاهتمام الرئيس للمدراء في مرحلة التكامل على كيفية إحداث نوع من التكامل بين المعرفة الموزعة وتجميعها في منتجات معرفية وخدمات، وعمليات خاصة بالمعرفة.

وهناك عاملان رئيسان يتحكمان بصورة مباشرة في إدارة المعرفة أشار إليهما ويج وهما العوامل الخارجية External factors، وتشير إلى العناصر البيئة التي تعمل في ظلها المنظمة أو المشروع أو الشركة والتي تؤثر في أعمالها ولا غنى للمنظمة سوى التكيف مع هذه المتغيرات والعوامل الخارجية والاستجابة لها، وأهم هذه المتغيرات العولمة، وزيادة حدة المنافسة. والعوامل الداخلية Internal factors وتتوفر هذه العوامل داخل المنظمة حيث تسهم في تطور إدارة المعرفة ومن أبرزها تزايد القدرات التقنية حيث أسهمت الإمكانات التقنية مثل الحاسبات والبرمجيات في تعدد مداخل إدارة المعرفة، وكذلك فهم الوظائف المعرفية حيث يتولى ذلك الأفراد المؤهلون علمياً وعملياً الأمر الذي يزيد من فاعلية إدارة المعرفة.

وهذا التطور السريع للمعرفة والتسارع المحموم نحو استخدام شبكات التواصل الاجتماعي يدفعنا للعمل معاً مسجداً ومدرسة وجامعة ومنزلاً لأن نحصن أبناءنا من خطر تلك النوافذ الإليكترونية علينا أن نؤكد على ضرورة توجيه الشباب إلى ضرورة التمسك بمعتقداتنا الإسلامية الرصينة، والعمل على تكريس الثقة في عباداتنا ومعاملاتنا الإسلامية عن طريق المواظبة عليها، ثم بتوجيههم إلى أصح المسالك والقراءات النافعة التي يجدون فيها متعة أعمق من ثقافة شبكات التواصل الاجتماعي.

الفصل السادس

ركائز نهضة الأمة الإسلامية

كَيْفَ نُوَاجِهُ مِحْنَةَ العَقِيْدَةِ والرُّوحِ مِن خَطَرِ الفَلْسَفَاتِ المَادِّيَّةِ؟

إن الإنسان لم يواجه محنة في تاريخه أشد مما يواجهها اليوم، ولا يظن البعض أننا نرمي إلى خطر أسلحة الدمار الشامل وملحقاتها، ولكننا نقصد ما هو أفدح من أسلحة الدمار والفتك التي باتت تهدده ألا وهي محنة العقيدة، محنة الروح من خطر الفلسفات المادية التي أصبحت تسود وتزحف وتحتل كل يوم موقعاً جديداً. لقد تجاهلت الفلسفة المادية كل القوى المعنوية، والقيم الإنسانية، وحصرت المشكلة كلها في لقمة العيش أو الجنس، ونسيت أو تناست أن عمل المعدة وشهوة الجنس تتساوى فيه مع الحيوان تمام المساواة، وأنهما ليسا أشد عراقة من المشكلات الإنسانية العليا ونفاذا إلى الصميم.

ومما يضاعف خطرها أنها لا تقف وحدها في الميدان ولكن تساندها قوتان لا نقلل من أهميتهما هما: الإيمان المغرور بالعلم، والاستغلال بنوعيه؛المادي والمعنوي، والخطة الحصرية لمواجهة هذا التيار الجمعي الجارف شئ واحد هو المسئولية الفردية، هذه هي بداية الطريق في معركتنا الإنسانية القادمة ، فليس الوعي الإنساني فرض كفاية، وإنما على كل فرد أن يحمل عبئه من الواجبات الإنسانية قدر جهده.

وما أحوجنا في ظل هذه الظروف المادية التي تكبل إنسانية الإنسان أن نقدم ملامح منهج ذي أسس إسلامية راسخة لمجتمع أفضل وما أحوجنا هذه الأيام لمنهج كهذه في ظل ظروف سياسية محمومة يسعى البعض بيننا لتقويض الوطن ومحاربة مؤسساته ومعارضة الرئيس بغير حجة أو دليل تحت دعاوى الديموقراطية والتعددية السياسية في الوقت ذاته الذي نرى فيه بعض رجال الدين يهرعون باتجاه السياسة متغافلين جل شأوهم وشأنهم الجليل وهو تبصير المسلمين بمعالم دينهم وشريعتهم السمحة.

ولعل أبرز مشكلات العصر الراهن مشكلة الجيل الحائر الذي فقد المثل الأعلى والهدف الصالح والغذاء الروحي والقدوة الحسنة والفكرة السليمة التي يمكن أن يجتمع عندها الشمل وتأتلف الكلمة وهو ما نفتقده بوضوح هذه الأيام بعدما تفرقت الكلمة بين تيارات إسلامية وجبهة إنقاذ وتيار شعبي وحركات ثورية تأتي من كل فج عميق وتهوي بنا إلى مستقر سحيق. و طالما يتعرض هذا الجيل إلى هزات عنيفة من اليأس والأمل والمفارقات الطريفة من الإقدام والتردد والصراع الأليم بين الواقع المر والحلم الذي نعيش فيه، ومن ثم فالواجب على رجال الدين أن يستنهضوا عزائم الشباب لتشخيص دائهم وتقديم العلاج الصحيح لهم، و ضياع الجيل الحالي مفاده أن المعنيين بعلاج الشباب روحياً يخطئون في تشخيص الداء ثم يضعون حلولاً غير عملية لمشكلات وهمية لم تقم على أسس من الدراسة الواعية والفحص الصادق العميق، وتكون النتيجة في تلك الحالة أن تذهب جهودهم سدى ويستسلمون لليأس بعد أن يبلوا البلاء الصادق في كدهم وجهدهم، وينفقون الأعوام الطوال في الجهاد والكفاح.

ولنا أن نؤكد على أن التاريخ مملوء بالمصلحين والضحايا منذ الأزل فما انتفى الشر ولا صلح الحال، ولكن جهود المصلحين لم تذهب عبثاً، وإنما أفاءت على الإنسان جسداً وفكراً وروحاً ما لا يحصى من الخيرات، وغاية الأمر من ذلك طموح أبداً لا يكاد يعتلي درجة من درجات الرقي حتى يتطلع إلى أخرى، وتتلخص سعادته ورقيه في هذا التطلع والعمل له، وما دام في الإنسان نفس يتردد فلن يهدأ له بال ولن يستقر على قرار ولن يكتفي بجهد السابقين فيما قدموه له، بل عليه أن يأخذ دوره مثلهم وأن يجعل حياته عامرة بالجهاد والنزوع. وهناك ضرورة أن يقوم كل جيل بدوره في تصحيح أخطاء مجتمعه، وفي السمو به مادة وروحاً إلى أعلى، و مفرق الطرق بين مصلح ومصلح لا في مقدار الجهد ولا الحماسة للفكرة، وإنما في تشخيص الداء، ووضع يده على المشكلات الحقيقية التي تعتاق طريق مجتمعه عن الرقي والنهوض.

وإذا كانت الخطوة الأولى وهي تشخيص الداء تبدو عسيرة، فإن الخطوة الثانية لإصلاح المجتمع هي أشد عسراً من الأولى، فقد يتفق أكثر من واحد على تشخيص الداء ويختلفون في تحديد العلاج. وهو ما نلاحظه اليوم مع تعدد المذاهب، والتي عادة ما ترجع إلى مذهبين جامعين المذهب الجماعي والمذهب الفردي ونحن نرى أن من بين أتباع المدرستين من وفق توفيقاً لا شك فيه في الكشف عن العلل الدفينة، ولكنا لم نر بعد من وفق مثل هذا التوفيق في العلاج الصحيح مع أن كليهما يشتعلان غيرة صادقة على خدمة الإنسان.

وبين هذين الاتجاهين المتقابلين يقف الإنسان حائراً متردد الرأي

والخاطر ويتساءل مستمراً أين الاتجاه الصحيح؟ وهو ما يعبر عنه الطرح الاستفهامي التالي: هل هناك حياة أفضل؟. وإذا لم تكن هناك حياة أفضل فهل حياتنا هذه جديرة بأن نحياها؟. نعم لمن هذه الحياة إذا كان كلنا يشكو؟ هل يدعي أحد أنه يعيش في دنياه كما ينبغي، وأن يحقق الوسائل التي تكفل له ذلك؟ أم سيظل أبد الدهر عاجزاً عن تحقيق هذه الوسائل.. الحق أننا غفلنا عن السعادة التي نتعشقها كما تدور في خيالنا لأننا غفلنا عن الوسيلة الصحيحة، إن بيننا وبين السعادة الممكنة حاجزاً شفافاً نراها منه ولا نتناولها، فهل نستطيع أن نصل إلى المفتاح السحري لهذا الباب لنغترف من هذه الحياة المترعة بالهناء على قدر ما نطيق، فلم يمنحنا الله الحياة لنعطيها ظهرنا ونعيشها ونحن نتحسر في ضيق الحرمان، إن الله أوسع رحمة وأشمل عدلاً من أن تكون هذه الحياة مجرد معاناة وحرمان.

وقبل أن نضع خطة ونعبد بها الطريق الذي يجب أن نسلكه يحسن بنا أولاً أن نلقي نظرة فاحصة على المعوقات التي تقف في طريق نهضة الأمة فتجعلنا ننحرف عن الجادة وأبرزها التقليد والنزوع وراء المادية وغلبة الأنظمة الطاغية وشيوع الدعوات الانفرادية المفككة التي لا تجيد الربط بين القيم العليا وجمعها في خيط واحد لتنتظم حياتنا من جميع نواحيها.

كما أن معظم النهضات السابقة كانت رد فعل لمظالم واقعة وهذا طبيعي، ولكنها لم تكد تقوم وفي نيتها دفع الظلم وحده حتى تحل مكان القوة المنسحبة كقوة طاغية مستبدة، فتكون أشبه بعملية انتقام منها بثورة وإصلاح. أيضاً من المعوقات أن بعض دعاة الأفكار كانوا خياليين حالمين، ولكنهم لم يكونوا دارسين دراسة تامة واقع حياتهم المحيطة بهم وطريقة

تناولهم لفكرتهم بالصورة التي يمكن أن تجد قبولاً لدى مستمعيها، وأن يتطوروا شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى النتيجة المرجوة.

وإذا فكرنا سوياً بمنطق المشاركة لا المغالبة في الرقي والنهوض بأمتنا الإسلامية فمن الأحرى علينا جميعاً أن نحدد الحلول المتينة لنهضة الأمة واستباق الرقي والتقدم منها وهذا لا يتحقق إلا عن طريق الجزاء الذاتي أي محاسبة المرء لنفسه قبل محاسبة الآخرين،والجزاء الذاتي هو أن تفعل ما تعتقد أنه الخير بدافع داخلي محض أشبه بالاستجابة الطبيعية التلقائية منه بالعمل المحدد المرسوم، أن تفعل الخير جهد ما تستطيع لأنه خير، لا لأنك تثاب عليه أو لأنك ستتلقى الشكر من أحد.

فلنتدبر جيداً ولنفتح عيوننا وبصائرنا لنعلم أن كل ما نعانيه من خلط واضطراب وتخبط في أمورنا وفي معاناتنا للحياة الكريهة التي نعيشها إنما هو لسبب واحد: هو أننا غفلنا في تاريخنا كله عن هذا القانون العظيم الذي يتلخص في كلمتين اثنتين: الجزاء الذاتي. إن خطيئتنا الكبرى على مدى التاريخ أننا ألقينا بالجزاء من الداخل إلى الخارج، فتعلق الإنسان به سواء أكان جزاء دنيوياً أم أخروياً، غافلين عن الجزاء الحقيقي الأسمى الذي ينبع من النفس ذاتها، والذي يعلو على كل جزاء، إننا في حاجة أن نوليه الجزء الأكبر من عنايتنا والنصيب الأوفر في ثقافتنا وتربيتنا حتى ينال منا ما هو جدير به من الاهتمام الكامل، والتقدير الصحيح وبعدها سوف نفخر أننا نعيش في مجتمع بشري متحضر لا كهذه الذرات المتناثرة التي تتخبط في عماء.

فهذا التخبط في كل شئ من شئوننا، وهذه الفوضى الضاربة أطنابها

في كل ناحية، والانحلال الذريع في كل مكان، هذا كله لا علاج له إلا شئ واحد الإسراع في تطبيق هذا المبدأ الجليل، ولا يفهم من هذا أن هذا المبدأ غير معمول به حتى الآن، فما أعمال الأنبياء والمصلحين والمخلصين من أبناء البشر منذ فجر التاريخ حتى يومنا هذا إلا ترجمة دقيقة له، حتى إنه روي عن سيف الله المسلول خالد بن الوليد أنه قال: " لو لم أؤجر على ترك الكذب لتركته أنفة".

وما أجمل الجزاء الذاتي وما أسماه وما أرقه خاصة حينما تسود بيننا قيمة عليا وحينما يحاول كل فرد أن يطبقها في حياته جهد ما يستطيع، إنه الأساس المتين لكل ما يبنى عليه من القيم العليا في مجتمعاتنا العربية الإسلامية بإذن الله.

ومن ركائز نهضة الأمة الإسلامية أيضاً إظهار الحق عن طريق الإقناع، ويعني أن المناخ الصالح للفكرة هو التسامح المطلق مع كل رأي آخر ودرسه بحرية مطلقة وإفساح الطريق لكل فكرة جديدة مهما تكن مناهضة لآرائنا وكل حجر على حرية الرأي لأي عذر وأي تبرير يجب أن نجعله دبر آذاننا وليكن الحكم الفيصل بين ما لكل فكرة وما عليا هو موقف الرأي العام منها بعد دراسها وتمحيصها وإعطائها فرصة الحياة والظهور.

فالنقاش الحر البناء هو الذي يكشف زيف الفكرة أو صدقها ويوضح صحيحها وباطلها، وقد تكون الفكرة ناقصة فيكملها غير صاحبها، وقد تتجلى لنا أثناء النقاش أفكار أخرى لا تخطر على بال صاحب الفكرة أو من يعارضه، ويكفي أن يشعر كل صاحب رأي أنه محل احترام مواطنيه وأهلاً لثقتهم ليضرم في قلبه نار الإخلاص والكدح في تقديم كل ما يمتع

وما يفيد.

ومن أسباب النجاح للأمة الإسلامية توافر الثقة بيننا، لا سيما وجود حالة من الثقة الغائبة بيننا هذه الأيام والقلق والتخوف والحذر الذي يولد الاضطراب ومن ثم الإضراب فتتعطل الحياة ويشيع العجز والركود وحقاً إن ما تعاني منه مصر الآن هو أزمة الثقة في كل شئ وفي كل إنسان ومع الجميع ؛ أزمة ثقة بين الوالد وولده، والزوج وزوجه، والمدرس وتلميذه، والمرء ومرؤسيه، والجار وجاره، والبائع والمشتري، وقس على ذلك كل ما بين الناس من صلات ومعاملات وروابط في كل ناحية من نواحي الحياة. وكيف تسقط هذه القيمة العليا من سماء المجتمع وهي شمسه المضيئة، وكيف تعزل عن كيانه وهي روحه الحي، ثم يرجى لهذا المجتمع البقاء، فضلاً عن النهوض والتقدم والارتقاء.

الفصل السابع

ضَوَابِطُ الاِجْتَهَادِ الفِقْهِيِّ فِي الإِسْلامِ

يكاشفنا فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى (رحمه الله) والذي وصفه شيخ العصر وإمام القَرنِ الشيخ العالم فضيلة الإمام مُحَمَّد متولي الشعراوي (رحمه الله) في تقديمه للجزء الثالث من كتاب " التيسير الميسر للقرآن الكريم " فقال: " إنه أستاذ أجيالنا،ناصر السنة، وقاهر البدعة، وميسر كتاب الله وسنة رسوله للقارئ والدارس " بحقيقة ترصد حالة مجتمعاتنا الإسلامية المعاصرة حينما ذكر في كتابه صغير الحجم كبير القيمة " ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين " أن التفرق البغيض الذي مزق المسلمين حتى وقتنا الراهن مفاده الابتعاد عن المنهل الأول الذي لا يخرج عن كتاب الله وسنة نبيه المصطفى (عليه الصلاة والسلام) وما تركه لنا السلف الصالح من نماذج حياتية سليمة وقويمة.

ولقد حدد الشيخ عبد الجليل عيسى أسباب الخلاف والشقاق بين المسلمين في ثلاث صور هي: رجل أرخى عنان خياله، وجرى وراء تصوراته، وإذا وقف في طريقه نص صريح، أعمل فيه معاول التأويل والتصريف حتى ينسفه من طريقه. ورجل جمد مع ظاهر النص، وألغى عقله، وجهل نص الخطاب وفحواه. ورجل مقتصد وفَقِهَ روح التشريع فكان أمة وسطا، فهدي إلى الصراط المستقيم. وهذه الصور هي التي

تشكل صلب الشقاق والنزاع الفكري بين عموم المسلمين اليوم. وما زاد المشكلة تعقيداً أن عموم الناس أصبحوا لا يقرأون وإذا كلفوا أنفسهم عبء القراءة فإنهم لا يفطنون، فاستكانوا إلى الاكتفاء بالتسجيلات الصوتية لبعض المتنطعين الذين لم يؤهلوا لحمل أمانة الكلمة أو الدعوة فكانت النتيجة هي مزيد من التطرف والغلو غير المحمود.

ولقد أصابت الأمة الإسلامية عدة أمراض فكرية ارتبطت جلياً بالخطاب الديني، من أبرزها أن الناقلين لبعض النصوص الفقهية لم يكلفوا أنفسهم بتحري الدقة في النص أو البحث عن الراوي أو الداعي له، فكانوا أشد قسوة على أنفسهم لأنهم أصيبوا حقاً بداء الجمود وعدم التجديد، وإذا استمعوا إلى رأي يخالف نصهم السابق فإنهم يرمون هذا الرأي وربما صاحبه أيضاً بالضلال والفجور والفسق. ولقد اجتهد المجتهدون الأوائل في الإسلام في تعليم العقل المسلم فقه الأولويات المقصود به فقه الواقع لأنهم فطنوا جيداً لحديث رسولنا الكريم (صلى الله عليه وسلم) الذي قال فيه: " دعوني ما تركتكم إنما أهلك من كان قبلكم كثرة أسئلتهم واختلافهم على أنبيائهم فإذت نهيتكم عن شئ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ". وهذا الحديث يعد توجيهاً نبوياً كريماً إلى البدء بفقه الواقع، وأكد الرسول الكريم (ﷺ) ضرورة عدم استشراف الواقع الفقهي بمسائل فقهية قد لا تحدث أساساً وإنما يعد الولوج فيها باباً رئيساً من أبواب الخلاف والجدل الذي يقسم المسلمين إلى فصائل وطوائف متباينة، فقال رسولنا (ﷺ): " هلك المتنطعون ".

واجتهد المفسرون الأوائل في تفسير الحديث حتى أقروا توصيفه بأن

المتنطعين هم المتكلفون للكلام فيما لا يقع، والمفرعون على مسائل لا أصل لها في القرآن الكريم ولا في السنة المطهرة الشريفة. وهو ما شدد عليه بعد النبي (ﷺ) الفاروق عمر (رضي الله عنه وأرضاه)، فلقد قال ابنه عبد الله بن عمر: " لا تسألوا عما لم يكن، فإني سمعت عمر بن الخطاب يلعن السائل عما لم يقع، ويقول: أحرم عليكم أن تسألوا عما لم يقع، فإن لنا فيما وقع شغلاً ".

لكن في العصور الآنية وجدنا بعض الأئمة والشيوخ خرجوا بالاجتهاد الفقهي عن مقاصده المحمودة والمرغوبة، وسلكوا طريقاً غير ممهدةٍ عن طريق الدخول في تفصيلات وتفريعات فقهية لا نستطيع توصيفها فقط بأنها نادرة الحدوث بل إنها متخيلة ومن الصعوبة حدوثها. وهذا الخلل الذي أصاب منهاج الوسطية الإسلامية هو ملمح خطير للتراجع الحضاري، ووجدنا اليوم تضخماً كبيراً في فقه العبادات وضمور الاجتهاد أو التفقه المستنير في بقية الأبواب الشرعية مما زاد من هوة الخلافات والجدل بين عموم المسلمين.

ونورد جملة من الأمثلة في الخلاف الفقهي التي أوردها شيخنا عبد الجليل عيسى في كتابه الماتع " ما لا يجوز فيه الخلاف بين المسلمين " والتي ذكر فيها بعض الأشياء التي تبطل العبادة عند بعض العلماء ولا تبطلها عند غيرهم. ومن ذلك الدعاء بشئ من متاع الدنيا في التشهد الأخير مبطل للصلاة عند الحنابلة، وهو جائز عند المالكية. وصلاة المأموم الواحد خلف الإمام أو عن يساره عند خلو يمين الإمام باطلة عند الحنابلة صحيحة عند غيرهم. وزيادة (ورحمة الله) بعد (السلام عليكم) عقب

الفراغ من التشهد الأخير في الصلاة ركن تبطل الصلاة بتركه في الفرض عند الحنابلة، ولا تبطل الصلاة بتركه عند غيرهم.

ومن الشواهد التي يسوغ فيها الخلاف بشرط عدم التعصب للرأي البسملة في أول الصلاة، فهي فرض عند الشافعية وسنة عند الحنفية، وقراءة المأموم للفاتحة في الصلاة السرية فرض عند الشافعية، مندوبة عند المالكية. والسجود على اليدين وأطراف القدمين مع الجبهة أثناء الصلاة فرض عند الشافعية، وسنة عند المالكية.

والمشكلة القائمة بين المسلمين اليوم هي الارتكان إلى ثقافة السماع دون تكليف الذهن بتحري المعرفة الدينية، وربما سطوة الحياة المعيشية هي التي أجبرت المواطنين إلى العزوف عن القراءة الفقهية المتعمقة رغم أن معرفة العبادات وتفقهها فرض عين على الجميع خاصة وعموم، وأن أداء العبادات بغير علم أو دراية أو معرفة عميقة قد يخرجها عن دلالتها وحضور الذهن والنفس معاً أثناء تأديتها. وجملة من الأسباب التي أودت إلى ظهور الخلافات الفقهية والتي ربما راح ضحيتها عموم المسلمين لأنهم أخذوا ببعض الآراء دون غيرها، واقتصروا على وسائط دينية قاصرة بغير تحمل عناء البحث عن المعلومة الفقهية السديدة فكان عرضة للوقوع في الخلاف.

ومن هذه الأسباب غفلة الكثير عن تحذير النبي (ﷺ) من التشدد في الدين، عملاً بقول الله تعالى في محكم التنزيل: (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) (سورة البقرة، آية ١٨٥). وقوله تعالى: (وما جعل عليكم في الدين من حرج) (سورة الحج، آية ٧٨). وعن أبي موسى

الأشعري قال: لما بعثني رسول الله (ﷺ) أنا ومعاذ بن جبل إلى اليمن قال: " يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا".

ومن أسباب الوقوع في الخلاف عدم عناية المتأخرين بالتحري عن ظروف كثير من أوامر النبي (ﷺ) وإرشاداته وتوجيهاته، هل المراد أن تكون تشريعاً عاماً دائماً، أو خاصاً ببعض الناس دون بعض، أو بعض الظروف دون بعض، وهذه الأمور كلها لها ضوابطها وشرائطها المعقودة. ومن ذلك ما رواه الإمام البخاري عن النبي (ﷺ) أنه نهى عن ادخار شئ من لحوم الأضاحي أكثر من ثلاثة أيام، فلما جاء العام الثاني وتحدث الناس عن عدم الادخار قال لهم رسول الله (ﷺ): " كلوا وادخروا ما شئتم، وإنما نهيتكم في العام الماضي لأنه كان بالناس فيه مجاعة، فأردت أن تعينوهم فيها".

ومن أبرز أسباب الاختلاف الفقهي غفلة الكثير من عموم الناس عن أن رسول الله (ﷺ) كثيراً ما كان يجيب السائل أو يأمر الرجل أو ينهاه بما يناسب حاله هو بعينه، وقد لا يناسب غيره، وكثير من المتأخرين ينقل للسامع حديثاً أو شاهداً نبوياً شريفاً دون أن يرصد له شروط الرواية والحادثة والسياق الذي ورد فيه الحديث، وهذه تعد من الأمور التي تحدث لغطاً بين الناس. ومن هذا أن رجلاً سأل النبي (ﷺ) أي الأعمال أفضل؟ فقال له: " الجهاد في سبيل الله ". وسأله رجل هذا السؤال نفسه فقال: " بر الوالدين". وسأله ثالث فقال: " كف الأذى عن الناس". وقال لرابع: " أفضل الأعمال الصدقة على الفقراء".

وفي هذا يخبرنا الحافظ بن حجر أنه يؤخذ من هذه الأحاديث تخصيص

بعض أعمال الخير بالحث عليها وذلك طبقاً لحال المخاطب وحاجته للتنبيه، والرسول في هذا أشبه بالطبيب الماهر الذي يصف الدواء حسب حالة المريض، ولكن المأساة أن العوام وبعض الشيوخ الذين لم يتفقهوا جيداً يأخذون الأمور والشواهد على عموميتها وظواهرها فقط دون الرجوع إلى سياق الخطاب نفسه وإحداثياته.

ويشير أبو إسحاق الشاطبي أحد علمائنا الأجلاء النابهين في كتابه الموافقات إلى خطر كبير يعصف بالأمة الإسلامية ويمزقها وهو التعصب لرأي أو شيخ أو لجماعة أو لفرق دينية بقوله: " إن تعويد الطالب على ألا يطلع إلا على مذهب واحد ربما يكسبه ذلك نفوراً وإنكاراً لكل مذهب غير مذهبه ما دام لم يطلع على أدلته، فيورثه ذلك حزازة في الاعتقاد في فضل أئمة أجمع الناس على فضلهم وتقدمهم في الدين وخبرتهم بمقاصد الشارع وفهم أغراضه.

ومن هذا التعصب الشديد في الرأي ما قاله أحد مشاهير علماء الأحناف وهو الشيخ أبو الحسن عبد الله الكرخي حيث قال: "كل آية أو حديث تخالف ما قرره علماء مذهبنا فهي إما مؤولة أو منسوخة". والعجيب أن ديننا الحنيف أقر برفع الشقاق والنزاع بين الناس وضرورة التقريب والتسديد وإحياء الوحدة والاتحاد ورغم ذلك نجد كثيرين يدعون إلى الفتنة والشقاق وإثارة نعرات الخلاف، يقول الله تعالى: (ولا تكونوا كالذين تفرقوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم) (سورة آل عمران، آية ١٠٥).

مراجع الكتاب

(١) ابن قيم الجوزية (٢٠٠٨م): مدارج السالكين ـ القاهرة ـ مؤسسة اقرأ.

(٢) محمد الغزالي (١٩٩٠م): الجانب العاطفي من الإسلام ـ بحث في الخلق والسلوك والتصوف، القاهرة، دار الدعوة .

(٣) وزارة التربية والتعليم المصرية (٢٠٠٤م): المعجم الوجيز ـ القاهرة ـ مصر.

(٤) تمام حسان (٢٠٠٣م): البيان في روائع القرآن، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص

(٥) مصطفى صادق الرافعي (١٣٤٦ هـ): إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، القاهرة.

(٦) بليغ حمدي إسماعيل (٢٠٠٨) فعالية برنامج مقترح قائم على استراتيجيات ما وراء المعرفة في اكتساب واستخدام هذه الاستراتيجيات والكفاءة اللغوية لدى طلاب شعبة التعليم الابتدائي (اللغة العربية والتربية الدينية) بكلية التربية. رسالة دكتوراه غير منشورة ـ جامعة المنيا.

(٧) بليغ حمدي إسماعيل (٢٠١٢م): استراتيجيات تدريس اللغة العربية أطر نظرية ونماذج تطبيقية ـ عمَّان ـ الأردن ـ دار المناهج للنشر والتوزيع ـ ط١.

(٨) بليغ حمدي إسماعيل ـ الإعلاء الإسلامي للعقل البشري (وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية ـ الكويت ـ يناير ٢٠١٢م).

(٩) جميل صليبا(١٩٨٧): معجم المصطلحات الفلسفية بالألفاظ العربية والإنجليزية والفرنسية.بيروت.دار الكتاب اللبناني.

(١٠) جودث جرين (١٩٩٠): التفكير واللغة. ترجمة:عبد الرحمن بن عبد العزيز.الرياض

(١١) حمزة النشرتي، عبد الحفيظ فرغلي (٢٠٠٨): الابتلاء في حياة أهل البيت.

دار النشرتي للطبع والنشر . القاهرة.

(١٢) رفاعة رافع الطهطاوي (٢٠١٠): سيرة الرسول وتأسيس الدولة الإسلامية . دار الشروق . القاهرة . تحقيق: مُحَمَّد عمارة

(١٣) سيد قطب (١٩٩٦): في ظلال القرآن . دار الشروق . القاهرة . الطبعة الخامسة والعشرون.

(١٤) عبد الشافي مُحَمَّد عبد اللطيف (٢٠٠٥) : أوائل المؤلفين في السيرة النبوية . القاهرة . وزارة الأوقاف . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . سلسلة دراسات إسلامية . العدد (١١٤).

(١٥) عبد العزيز الدوري (١٩٦٥): دراسة في سيرة النبي ومؤلفها ابن إسحاق . بغداد

(١٦) عبد الحميد يونس (١٩٩٨): مجتمعنا. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(١٧) علي أو مليل: الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون. المركز الثقافي العربي . الدار البيضاء . المغرب . الطبعة الثالثة . ١٩٨٥م.

(١٨) عبد اللطيف خليفة(١٩٩٣): سيكولوجية الاتجاهات. القاهرة،دار غريب.

(١٩) عبد المنعم الحفني(١٩٩٤):موسوعة علم النفس والتحليل النفسي. القاهرة. مكتبة الأنجلو

(٢٠) عبد المنعم المليجي(١٩٥٥): تطور الشعور الديني عند الطفل والمراهق. القاهرة.منشورات جماعة علم النفس التكاملي.

(٢١) مجمع اللغة العربية(١٩٧٢): المعجم الوسيط.بيروت. دار إحياء التراث العربي.

(٢٢) مجمع اللغة العربية(١٩٩٠): المعجم الوجيز. القاهرة. الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية.

(٢٣) مُحَمَّد بن أبي بكر الرازي (١٩٩٣): مختار الصحاح. بيروت. مكتبة لبنان.

(٢٤) مُحَمَّد رأفت عثمان(١٩٩١):الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية في الإسلام،دار الضياء.

(٢٥) نبيل علي(١٩٩٨):العرب وعصر المعلومات. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢٦) نعمات أحمد قاسم (١٩٩٦): التوجه الديني الظاهري والجوهري وعلاقته ببعض الاستجابات العصابية لدى طلاب الجامعة.رسالة ماجستير غير منشورة. كلية التربية جامعة جنوب الوادي.

(٢٧) الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري (٢٠٠١): مختصر صحيح مسلم. بيروت ـ دار ابن حزم ـ الطبعة الأولى ـ ٢٠٠١م.

(٢٨) ابن الجوزي (٢٠٠٠): مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢٩) الراغب الأصفهاني (٢٠٠٣): المفردات في غريب القرآن ـ تحقيق وائل عبد الرحمن ـ القاهرة ـ المكتبة التوفيقية.

(٣٠) مُحَمَّد سيد طنطاوي (٢٠٠٨): العقيدة والأخلاق.القاهرة ـ الأزهر الشريف ـ سلسلة البحوث الإسلامية ـ الكتاب السادس عشر.

(٣١) مُحَمَّد فريد وجدي (٢٠٠٠): من معالم الإسلام. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ

(٣٢) مُحَمَّد عطية الإبراشي (٢٠٠٢): عظمة الرسول. القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ

(٣٣) الإمام علي بن أبي طالب (٢٠٠٠): نهج البلاغة ـ تحقيق الشيخ مُحَمَّد عبده ـ بيروت ـ دار البلاغة ـ الطبعة الثالثة.

(٣٤) بكري شيخ أمين (١٩٩٥): البلاغة العربية في ثوبها الجديد – الطبعة الرابعة – دار العلم للملايين – بيروت – ١٩٩٥.

(٣٥) عبد العظيم المطعني (١٩٩٦): دراسات جديدة في إعجاز القرآن– الطبعة الأولي – مكتبة وهبة – القاهرة.

(٣٦) مُحَمَّد عبد المطلب(١٩٩٧): البلاغة العربية – قراءة أخري – الطبعة الأولي – الشركة المصرية العلمية للنشر – القاهرة – ١٩٩٧.

(٣٧) أحمد مصطفي متولي(٢٠٠٥): الموسوعة الذهبية في إعجاز القرآن الكريم والسنة النبوية – الطبعة الأولي – دار إبن الجوزي – القاهرة – ٢٠٠٥.

(٣٨) عيد يونس (٢٠٠٦): التصوير الجمالي في القرآن الكريم – الطبعة الأولي – عالم الكتب – القاهرة – ٢٠٠٦.

(٣٩) السدي (١٩٩٣): تفسير السدي الكبير – تحقيق: مُحَمَّد عطا – الطبعة الأولي – دار الوفاء – المنصورة.

(٤٠) عبد القاهر الجرجاني(١٩٨٠): دلائل الإعجاز – تحقيق: عبد المنعم خفاجي – مكتبة القاهرة – مصر.

(٤١) مصطفي صادق الرافعي (١٩٤٥): إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – الطبعة الرابعة – مطبعة الإستقامة – القاهرة.

(٤٢) زين مُحَمَّد شحاتة (١٩٩٨): في نور القرآن الكريم . المنيا . دار الصفا للطباعة.

(٤٣) مُحَمَّد عبد الله بن مُحَمَّد ابن العربي (١٩٨٤): أحكام القرآن . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان.

(٤٤) عدوية عبد الجبار الشرع (٢٠٠٦): القرائن الدلالية للمعنى في التعبير القرآني . أطروحة دكتوراه منشورة . كلية التربية للبنات . جامعة بغداد.

(٤٥) مُحَمَّد علي الصابوني (١٩٨٨): مختصر تفسير ابن كثير . القاهرة . دار الصابوني.

(٤٦) أبو عبد الله مُحَمَّد بن إسماعيل البخاري (٢٠٠١): صحيح البخاري . القاهرة . دار المنار للطبع والنشر والتوزيع.

(٤٧) مصطفى الزرقاء (١٣٨٧هـ): المدخل الفقهي العام . دمشق . دار طربين.
(٤٨) إبراهيم الفايز: الإثبات بالقرائن في الفقه الإسلامي . المكتب الإسلامي . بيروت . لبنان.
(٤٩) مُحَمَّد عبد الله دراز (١٤٣١هـ): مدخل إلى القرآن الكريم.. حقائق تاريخية . ج١ . وزارة الأوقاف . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . سلسلة دراسات إسلامية . العدد ١٨٥.
(٥٠) أنس وكاك (٢٠١٠): السياق وأهميته في سلامة الاستدلال . كلية اللغة العربية . مراكش . المملكة المغربية.
(٥١) السيد تقي الدين السيد (١٤٢٨هـ): نظرات في الأسلوب القرآني . ج١ . مجلة الأزهر الشريف . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . ربيع الآخر.
(٥٢) مناع القطان (١٩٨٦): مباحث في علوم القرآن . مؤسسة الرسالة . بيروت . ط٢١.
(٥٣) ابن فارس (١٤١٦هـ): معجم مقاييس اللغة . تحقيق: عبد السلام هارون . ط٣ . مطابع الخانجي . القاهرة . مصر.
(٥٤) السيد عالم سبيط (٢٠٠٣): النظام القرآني مقدمة في المنهج اللفظي . ط٢ . مكتبة بلوتو . بغداد.

المؤلف في سطور

د. بَلِيْغ حَمْدِي إسْمَاعِيْل عَبْد القَادِر

أُسْتَاذُ المَنَاهِجِ وطَرَائِق تَدْرِيْسِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ والتَّرْبِيَةِ الإسْلامِيَّةِ

عمل مُنَسِّقًا لبَرْنَامَجِ مَحْوِ الأمِّيَّةِ وتَعْلِيمِ الكِبَارِ بِجَامِعَةِ المِنيَا

معملُ نَسّقا البَرَامِجِ الجَدِيْدَةِ باللُّغَةِ الإنْجِلِيْزِيَّةِ بِكُلِّيَّةِ التَّرْبِيَةِ

مُدِيرُ وَحْدَةِ الابْتِكَارِ ورِيَادَةِ الأعْمَالِ .كُلِّيَّةُ التَّرْبِيَةِ

الكتب المنشورة :

١. اسْتراتِيْجِيَّات تَدْرِيْسِ اللُّغةِ العَرَبِيَّةِ " أطُرٌ نَظَرِيَّة ونَمَاذِج تَطْبِيقِية. دار المناهج . عمَّان . المملكة الأردنية الهاشمية (٢٠١٣).

٢. اسْتراتِيْجِيَّات تَدْرِيْسِ التَّرْبِيَةِ الدِّيْنِيَّةِ الإسْلامِيَّةِ وتَنْمِيَةِ مَهَارَاتِ التَّفْكِيْرِ . دار دجلة . عمان . المملكة الأردنية الهاشمية . ٢٠١٧.

٣ . فِقْهُ الخطابِ الديني المعَاصِر (هَل الدِّين والسِّياسَة لحظتان مُتَعَاقِبَتَان؟). (دار الخليج . عمان المملكة الأردنية الهاشمية (٢٠١٧)

٤ . القرائِنُ اللَّفْظِيةُ في القُرآنِ الكَرِيْمِ (دِراسَةٌ في بَلاغَة النَّصِّ القُرآنِيّ). مؤسسة الكرمة الثقافية . القاهرة (٢٠١٥).

٥ . الوَقَائع الجَدلية في السِّيرةِ النَّبَوِيَّةِ.. أيَّامٌ فِي صُحبة رَسُولِ اللهِ . مؤسسة الكرمة الثقافية . القاهرة (٢٠١٥).

٦ . الإعْلاءُ الإسْلامِيُّ للعَقْل البَشَرِيّ..دراسة في الفَلسفَات والتَّيارات الإلْحَادِيَّةِ . وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية . الكويت ٢٠١٢م.

٧ . ليست الدهشة وحدها جوابًا لاسمي . مؤسسة الكرمة الثقافية . القاهرة (٢٠١٢).

٨ . مقدمة في علم الاتصال الإنساني . دار نور نشر . ألمانيا ٢٠١٨م.

٩ . اِسْتِرَاتِيْجِيَّاتُ مَا وَرَاء المَعْرِفَةِ وتَنْمِيَّةُ المَهَارَاتِ اللُّغَوِيَّةِ "مَسَاقَاتٌ إجرائيةٌ لِتَدْرِيْسِ مَهَارَاتِ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ " . دار نور نشر، ألمانيا (٢٠١٧).

١٠ . مَوَاجِيدُ ومَقَامَاتُ الصُّوفِيَّةِ . دار الكتاب الصوفي . القاهرة. ٢٠١٥م.

١١ . الطَّرِيْقُ إلَى دِمِشْق.. كُلُّ الخيَارَاتِ تُؤدِّي بِسُورِيَةِ إلى تَل أبِيْب. دار نور نشر، ألمانيا (٢٠١٧).

١٢ . الوصايا.. إشكاليات التلقي ورهانات التأويل . دار نور نشر . ألمانيا ٢٠١٨م.

١٣ . الفتنة الصامتة.. قراءة في إشكالية التنافي المعرفي للفلسفة العربية المعاصرة. دار نور نشر . ألمانيا ٢٠١٩م.

١٤ . الجَائِحَةُ و مُسْتَقبَلُ العُلُوم (اِسْتِشْرَافُ الإصْلاحِ العِلْمِيّ فِي الوَطَنِ العَرَبِيّ).: جلوب للنشر Globe Edit . لاتفيا / الاتحاد الأوروبي

الفِهْرِسْ

الباب الأول

القرائن اللفْظِيةُ في القرآنِ الكَرِيمِ

الفصل الأول: اللغة بَين اختِلافِ المواضعة وتفرد الوظائف اللغوية ١٢

الفصل الثاني: القرائن اللفظية. ٢٦

الفصل الثالث: نَظَراتٌ في التَّعْبِيرِ القُرآني ٤٩

البَابُ الثَّانِي

مِن موضوعات القرآن الكَرِيمِ

الفَصْلُ الأول: معاني الإحسانِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمْ ٦٧

الفصل الثاني: الأَوَّابُوْنَ فِي القُرْآنِ الكَرِيمْ ٧٥

الفَصْلُ الثالث: الحوار والمناقشة في القُرْآنِ الكَرِيمْ والسنة النبوية ٨٠

الفصل الرابع: العدل في الإسْلام ٨٨

الفصل الخامس: حكمة اللهِ فِي الابتلاء ٩٤

الفصل السادس: فضائل شهْرِ رَمَضَان ١٠٢

الفصل السابع: الصَّبرُ.. أحوال ومقامات ١٠٨

الفصل التاسع: فِي رِحَابِ آيَةٍ مِنْ الذِّكْرِ الحَكِيْمِ ١١١

الفصل العاشر: اللهُ الصَّمَدُ ١١٦

الباب الثالث

قَضَايَا إسلامية واجتماعية

الفصل الأول: الجمود وأسبابه في الخِطَابِ الديني المُعَاصرِ ١٢٠

الفصل الثاني: حملات تشويه الإسْلامِ فِي الإعْلامِ الغَرْبِي.....١٢٨
الفصل الثالث: المرأة في الإسْلامِ.....١٣٤
الفصل الرابع: القيم الإسلامية.....١٤١
الفصل الخامس: شبكات التواصل الاجتماعي.. الرؤية والرسالة والحماية.....١٤٤
الفصل السادس: ركائز نهضة الأمة الإسلامية.....١٥٥
الفصل السابع: ضوابط الاجتهاد الفقهي فِي الإسلام.....١٦٢
مراجع الكتاب.....١٦٨
المؤلف في سطور.....١٧٣